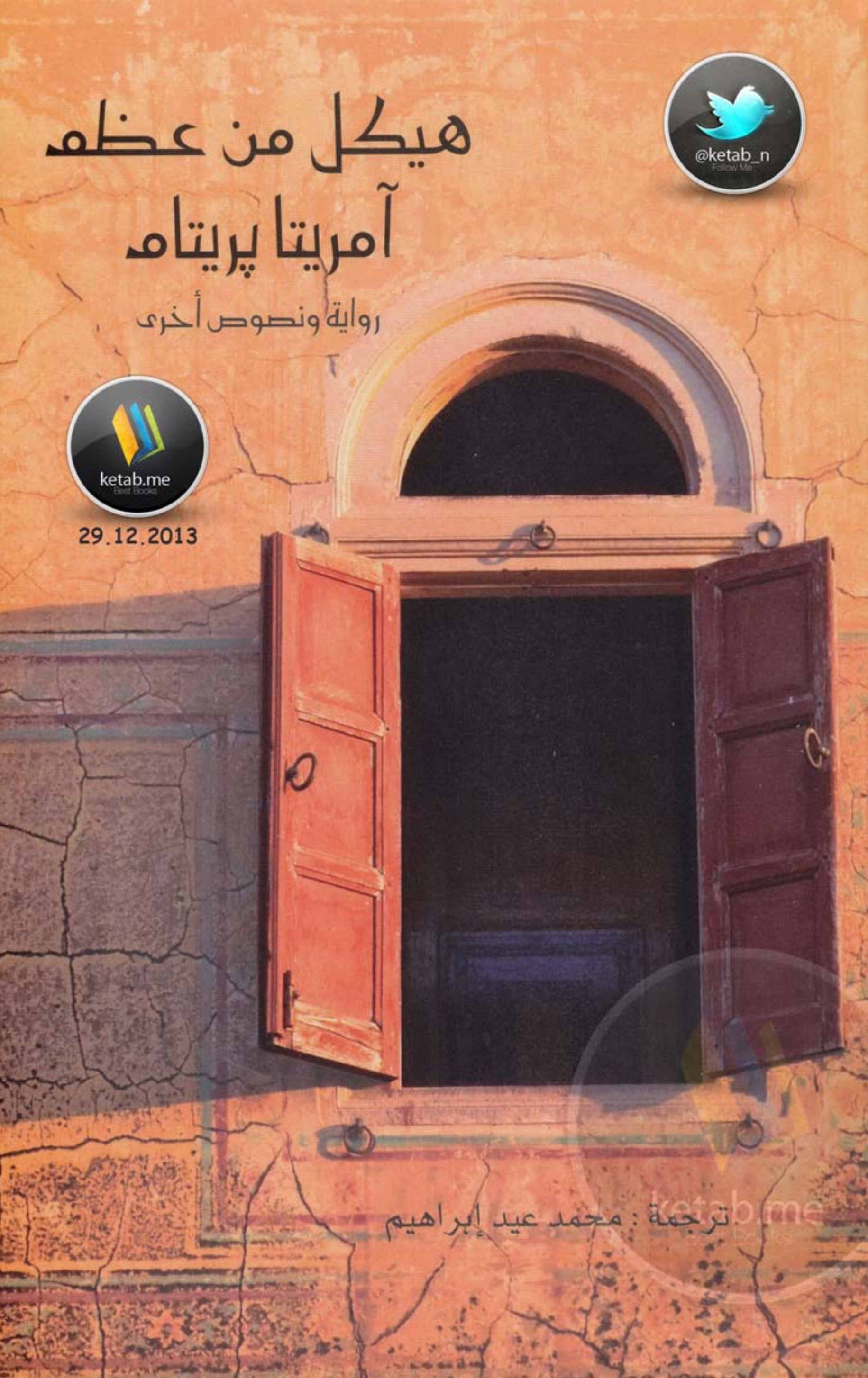


هيكل من عظم
آمريتا پريتام
رواية ونصوص أخرى
@ketab_n
Follow Me
ketab.me
Best Books
29.12.2013
ترجمة : محمد عيد إبراهيم
ketab.me

هيكل من عظم

رواية، قصائد وقصص

آمريتا پريتام

ترجمة:
محمد عيد إبراهيم

مراجعة:
خالد المصري





هيكل من عظم

فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

هيكل من عظم
بريتام، أمريتا

الطبعة الأولى 1430 هـ 2009 م

PK2659.A44 . S5712 2009
Pritam, Amrita, 1919-2005
[The Skeleton & Other Writings]

هيكل من عظم/ تأليف آمريتا بريتام ؛ ترجمة محمد عيد إبراهيم؛ مراجعة خالد المصري.- ط.1. -
أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.
160ص ؛ 21x14 سم.
تدمك: 978-9948-01-419-5
1 - القصص القصيرة - الترجمة الى العربية. أ- إبراهيم، محمد عيد. ب- المصري، خالد.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:

Amrita Pritam
The Skeleton & Other Writings



info@kalima.ae
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ ، فاكس: 462 6314 2 971+



www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ ، فاكس: 059 6336 2 971+

المحتويات

رواية

جلد على عظم

السماء رمادية كالحة. قرفصت پورو وقد فرشَت كيساً تحت قدميها. تقشّر البازلاّ. تضغط القَرن فتفتحه ثم تُخرج صفّ حبّات البازلاّ بإصبعها. التصقت بإبهامها يرقانة صغيرة لزجة. أحسّت كمن يخطو في بالوعة، فصرّت أسنانها، ونقفت اليرقانة ثم حكّت يديها بين رُكبتيها.

حدّقت پورو في ما أمامها من أكوام ثلاثة: القشر الفارغ، والقرون، وحَبّات البازلاّ المقشّرة. وضعت يدها على قلبها وواصلت الحملقة في الفراغ. أحسّت كأن جسمها قلبُ قَرْن البازلاّ التي حملت يرقانة بيضاء لزجة. جسمها متّسخ. لو تستطيع أن تستخرج الدودة من رحمها وتقذفها بعيداً! تلتقطها من بين أظافرها كأنها شوكة! تقتلعها كأنها يرقة أو علقة...!

حدّقت پورو في الحائط الفارغ أمامها. هلّت، زاحفةً، ذكريات الأيام السالفة، على بالها.

تنتمي پورو إلى عائلة من مسلّفي الأموال في قرية شاتو. وعلى الرغم من أنهم قد تخلّوا عن تسليف المال منذ أجيال، إلا أنهم لا يزالون يوصفون بأنهم "ساهوكر". لقد شهدوا أياماً سوداء و أُكرِهوا مرةً على بيع أواني مطبخهم التي نقشت عليها أسماء أسلافهم. لم يتحمّل والد پورو وعمّها المزيد من العار. فتركا القرية

راحلينِ إلى تايلاند. وهناك ابتسم الحظّ لهما. كانت پورو وقتها فتاة صغيرة في التاسعة، وبالإضافة إلى ذلك كان ثمة طفل رضيع في العائلة. ثم عاد والدها، فصفّى رَهْن البيت. كان المبلغ الرئيسي والفائدة المركبة أكبر من ثمن بيت جديد، وبذلك أنقذ بيت أجداده من الدائنين ومحا العار. باع كلّ ما كان يزرعه بأرضه من حبوب وعلف وعاد أدراجه إلى تايلاند. لكنه خلّف وراءه هذه المرة بيتاً تدّعي العائلة ملكيته واسماً يتباهون به. وحينما عاد مرةً تاليةً للقرية، كانت پورو في الرابعة عشرة، كما كان هناك أخوها الأصغر وثلاثُ أخوات صغيرات ولدن بعده. وكانت أمه تنتظر طفلها السادس.

كان أول ما فعله والدا پورو فور عودتهما إلى شاتو: العثور على رجل شابّ ابن عائلة ثرية في راتوفال القرية المجاورة، ، لخطبة ابنتهما. وكانت والدة پورو تنتظر مولودها الجديد. بمجرد أن أخذت حمّامها الشعائريّ، خطّطت لترتيب زفاف ابنتها واعتزم والدا پورو أن يتخففا من أعباء الإبنة.

كان خطيب پورو وسيماً وذكيّاً. يملك أبواه المنزل الوحيد في القرية، المسقوف من القرميد الصُلب؛ نُقشت على الشُرفة كلمة "أوم" . ولديهم ثلاثة جواميس. أهدى والد پورو أبوَي الشاب خمس روبيات فضية وقمعاً من حلوى السكّر، فـ "حجزوه" لابنتهم. كان العُرف بين هندوس المنطقة، في تلك الأيام، هو التبادل الزوجيّ، فعلى الرغم من أن أخاها كاد أن يبلغ الثانية عشرة، فقد خُطب إلى أخت خطيبها، التي كانت طفلة صغيرة.

لوالدة پورو ثلاث بنات ولدن بالتتابع، بفارق عامين بينهن جميعاً. كان لديها ما يكفي من البنات، ولأن الحظّ قد ابتسم الآن من جديد ولديهم طعام وفير وما يكفي من الملابس؛ فقد تمنّت أن يكون طفلها القادم ولداً آخر. ابتهلت بصلوات إلى الأمّ المقدّسة. وجلبَت نساء القرية رَوث البقر وجمّعوا صنماً في فنائها، غطّوا رأسه بشال أحمر برّاق زُيّنت حواشيه بالذهب، ثم زيّنوا منخاره بمسمار زينة صغير من الذهب. وترنّمن جميعاً في جوقة:

يا أمنا المقدّسة[1]، تكدَّري حين مجيئكِ!

يا أمنا المقدّسة، واسعدي حين رحيلكِ!

يعتقد جمهور القرية أن الأم المقدسة هي من يُحدّد جنس الوليد الجديد. وإذا كانت مرحة طافحة بالضحك، فهذا يعني أنها على وفاق مع زوجها، وبسرعة في هذه الحال تلد بنتاً في هذه الحال، ثم تستعجل العودة إلى زوجها. وإذا كانت، من ناحية أخرى، نكدة المزاج، فهذا يعني أنها تتشاجر مع زوجها وليست في عجلة من أمرها للعودة إليه، فتمكث هناك وقتاً طويلاً وبأناة تخلق ولداً ذكراً. وتردّد النسوة ترنيمتهن:

يا أمنا المقدّسة، تكدَّري حين مجيئكِ!

يا أمنا المقدّسة، واسعدي حين رحيلكِ!

---

1 الأمّ المقدسة، هنا، ربة هندوسية، لا علاقة لها بالسيدة مريم العذراء. م

وكانت الأم المقدّسة قريبة، كما يبدو، فتسمع ترنيمة النساء. وبعد أسبوعين وضعت والدة پورو مولوداً ذكراً. وكان ثمة مرح صاخب. حتى أبعد الأقربين، تلقّوا التهاني من أصحابهم وجيرانهم. كلّ ما يقلق أمّ پورو الآن أن الولد تريكال[1]، إذ جاء بعد ثلاث بنات، فقد يكون سيء الطالع؛ هؤلاء يموتون صغاراً أو يقصّرون حياة إخوتهم أو آبائهم. فيتعين على النسوة التجمّع من جديد لاسترضاء الأمّ المقدّسة. صنعن فَتحةً بإناء معدنيّ كبير، ومرّرن منها الوليد مرتين وهن يترنّمن:

يهلّ هناك جيشٌ من التريكال.

جيشٌ من التريكال!

بعد هذه الشعائر، أحسّت الأمّ بالطمأنينة من أن ابنها ستكتب له الحياة، على الرغم من أنه تريكال.

پورو الآن في الخامسة عشرة. تحسّ بهَبّةٍ غريبة من الدم في أوصالها. ثدياها يتبرعمان؛ وقميصها[2] ضاق عليها. فابتاعت قماشاً قطنياً مطبوعاً من سوق مجاور وخاطت عدداً جديداً من القمصان. كما جلبت كَمّاً جديداً من الأوشحة[3] يلائمها، ورشّتها كلّها بالكثير من جُسيمات زجاجية، فضيّة اللون.

---

1 trikhal: تعني أيّ شيء ثلاثيّ، باللغة البنغالية. م

2 kameez: قميص، طويل إلى ما تحت الركبتين. م

3 dupatta: شال أو وشاح، لرأس المرأة. م

وحدَّدت صاحبات پورو خطيبها، رام شاند، لها؛ حتى انطبعت ملامح الولد في عقل پورو. وكلما استعادت ملامح وجهه، اشتدّ احمرار خدّيها.

لم يكن يُسمح لپورو بالخروج من بيتها بمفردها. يمرّ كثير من الناس بين القريتين المتجاورتين ذهاباً وإياباً وتخشى أمها أن يرى أهل قرية رام شاند ابنتها. هناك سبب آخر تحذر منه. إن المسلمين أصبحوا عدوانيين. لا تغامر بنات الهندوس بالخروج في غير رابعة النهار، عند الظهيرة.

كانت پورو تذهب غالباً عبر حقول والدها وتشرُد، حتى تصل الممرّ الرابط بين القريتين. تتلكأ عند الأراضي المجاورة، بذريعة قطف السبانخ. وتذهب أحياناً إلى شجرة الجامون[1]، فتهزّ أفرعها وتقضي وقتاً طويلاً في قطف ثمارها. كما كانت تشغَل صاحباتها بالنميمة في حين ترقُب عيناها الممرّ المفضي إلى قرية رام شاند. تتضرّع أن يهلّ رام من تلك الطريق، حتى تُنعم فيه النظر. هي الفكرة التي تجعل قلبها يخفق بسرعة. ثم تقضي ليلتها في الحلم بالشابّ الذي سيغدو قريباً عريسها.

خرجت پورو ذات يوم مع صاحباتها، تلبس خُفّاً يشقّ كَعبَيها. آلمتها قدماها، فبدأت تتباطأ متخلّفة عنهن. دارت صاحباتها راجعات إلى القرية. وراح الشفق يتكثّف عبر السماء، ككتلة من

---

1 jamun: شجرة خوخ، لونها أسود. م

الرصاص المُذاب. كان الممرّ مُتعرّجاً عبر أرض بور، ماراً تحت غِياض من شجر البيبول[1]، ثم ملتفّاً بين عناقيد شُجيرات. رأت پورو صاحباتها وقد تقدمن بعيداً أمامها. برزت نفطة كبيرة في كعبها الأيمن. فنزعت خُفّها وهي تهرول حافية القدمين.

كانت البنات تداعبن پورو حين تؤلمها قدمها اليمنى، لأن يُمناها أثقل من يُسراها. يقلن إن يدها اليمنى أكبر أيضاً من اليسرى. ويضفن عابثات "سترين، حين تنسلّ أساور الزفاف من ذراعيكِ". رأت ذلك كلّه حاضراً أمام عينيها: تضغط البنات أساور عاجية حمراء في ذراعيها؛ الكبرى تنسلّ بسهولة؛ ثم تنزلق الصغرى في الذراع اليسرى لكنها تعجز عن المرور باليد اليمنى. أما المزيّنة، وهذه وظيفتها، فتُليّن رُسغها بالزيت وتُحاول أن تضغط يدها خلال الأسورة العاجية. فهل تتحمّل الشدّ؟ الأسورة رمز النعمة الزوجية. وإذا انكسرت واحدة منها، فتلك علامة أكيدة على الكارثة القادمة - ربما ترمّل مبكّر. نظرت پورو غاضبة إلى يدها اليمنى. ابتهلت أن يعيش رام شاند حتى عُمر طاعن - إلى مئة ألف سنة أو تزيد.

بينما كانت پورو شاردة الفكر، طلّ رجل على حين غرّةٍ من خلف شجرة بيبول، وقف وسط الطريق، يعترض دربها. الولد المسلم، رشيدة. كان شاباً عفيّ البنية في بواكير عشرينياته. التوت شفتاه بابتسامة عابثة. كما حملقت عيناه في صدر پورو الذي لم يتشكّل بعد.

---

1 : نوع ضخم من شجر التين، المقدّس عند الهندوس، حيث جلس تحتها بوذا. م

صرخت پورو وجرت من أمام رشيدة. حين لحقت بصاحباتها عند أطراف القرية، كانت لاهثة الأنفاس مرتعبة. داعبتها البنات "كان ولداً أم نمراً؟". كانت پورو ذاهلةً لدرجة أنها عجزت عن الردّ. قالت إحداهنّ "أنتِ ساذجة صغيرة!"، "محظوظة أنه لم يكن دبّاً! فالنمر يلتهم ضحيته. أما الدبّ فيقال إنه يأخذ المرأة إلى وَجْرته ويتصّرف معها كأنها زوجته".

وانفجرت البنات في الضحك.

ارتعدت پورو من هذا المنظر. مَن تلك البائسة التعسة التي تُضطّر للنوم مع دبّ! وكلّما فكّرت فيه، شحُبت أكثر. رأت بِنية رشيدة، العفية، المُشعرة، وعينيه الوامضتين. سمعت ضحك صاحباتها يختفي عبر حارة القرية.

بعد يومين ذهبت پورو إلى الحقول لقطف الفاصوليا الحمراء. اقتلعت ملء حفنة ومضت إلى بئر مجاورة. غسلت الفاصوليا ثم وضعت بفمها واحدة طرية. سمعت صوتاً فرفعت بصرها. كان رشيدة واقفاً جنب جذع شجرة، يحدّق فيها. أحسّت پورو بالدم يتسحّب من ساقيها.

"لماذا الخوف، يا جميلة؟ إنني عبدكِ". لرشيدة الابتسامة العابثة نفسها التي ارتسمت على وجهه من قبل.

يبدو رشيدة كأنه دبّ رماديّ ضخم. فهل سيمدّ ذراعيه، ويسحبها بمخالبه الكبيرة ليعانقها؟ هل يلاطف عنقها بأظافره الحادّة؟ يجرّها نحو وَجْرته و...؟

جاء فلاّحان على الطريق. حتى ذلك لم يردّ رشيدة. فلبث حيث كان، بابتسامة شهوانية ترتسم على وجهه. فرّت پورو إلى بيتها.

لم تفصح پورو عن هذه المواجهات لوالديها. نصحتها صاحباتها أنها ليست من الأمور التي يحكيها المرء لأبيه أو أمه. أخبرنها أن الرجال، كلّ الرجال، يحدّقون في النسوة الشابات ويصفون أنفسهم بالخدم أو العبيد؛ ولا يجب على المرء أن يأخذ ذلك الهُراء بجدّية خالصة. فدعي الرجال يتكلّمون وينبحون! فهل يكفّ الناس عن السير في الطرقات خوفاً من عواء الكلاب عليهم!

يقترب عُرس پورو كلّ يوم. يخزّن والدها صفائح السمن وأكياس الطحين لإطعام ضيوفه. تملأ والدتها صندوقاً خشبياً بأوشحة مزخرفة وفساتين من حرير خالص جلبتها من تايلاند. وصارت أناملها توجعُها من خشخشة الأوشحة. أمّا السقيفة الخارجية فكانت تتوهج بلمعان أواني النحاس التي ستُهدَى مَهْراً. وطرّزت پورو مفارش لسريرها. كما ضفّرت بيديها سِلالاً من الأغصان وجريد النخل[1].

ذات مساء، عندما كانت أمها ترضع وليدها، قرّرت پورو أن تطبخ سبانخ. فتناولت أوراقاً طرية من السرسون[2]، شطرتها قطعاً صغيرة ثم غسلتها مرتين. فركت القِدر بحُزمة سلك خشن ثم وضعت فيه السبانخ. أضافت الحمص حتى طفح القِدر، فوضعته

---

1 moorhas: سلّة مصنوعة من جريد النخل. م

2 sarson: ورق السلق، شبيه بالسبانخ، ويُطبخ مثله. م

على نار هادئة بطيئة. دفعت المزيد من حُزم العِصِيّ تحت القِدر.

كانت پورو مثابة ذراع أمها اليمنى؛ تطبخ وتعتني بالبيت دون جهد كبير. رأت أمّ پورو ابنتها مشغولة بالطبخ. فندّت آهة عميقة من بين شفتَي الأمّ. ستفقدها في القريب العاجل؛ وسيبدو بيتها فارغاً منها. فغمر الدمع عينيها. وبدأت تغني مرثية على الابنة:

آهِ يا أمي، في حِضنكِ ضُمّيني
ورُدّي على سؤالي الوحيد.
لا تقُصّي عليّ حكاية طويلة:
احكي لي لماذا حملتِ بي،
ما دمنا سنفترقُ الليلة؟

واختنق صوت الأمّ بالانفعال فبدأت تنشج. سيطرت على تنهّداتها ثم شرعت من جديد في صوت مضطرم:

أخرجتُ عجلة مِغزلي،
عندي لفائف قطن،
سأغزل المفارش بأشكالٍ مربّعة.
للأولاد المنازل والقصور؛
وتُنفَى البنات إلى بلاد غريبة.

ركضت پورو إلى أمها فحضنتها من رُكبتيها. وانفجرت الأمّ والابنة بالدموع. ·

وكانت ظلال الظهيرة قد شرعت بالتمدد عبر الفناء. وخطر لأمّ پورو أنهما طبختا صنفاً واحداً من الخضار فحسب وسيكون مُحرجاً لو زارهم أحد من عائلة خطيب البنت دون توقّع. فسألت پورو أن تحضر حفنة من البامية من الحقول.

وقد ساور پورو شعور بالقلق. فأخذت معها أختاً من أخواتها الصغيرات. قطفت البامية والفاصوليا الحمراء ثم عادت كلتاهما إلى البيت. من خلفها هبّ صوت حوافر خيل في خَبَب سريع. وقبل أن تحيد عن الممرّ، أحسّت بشيء يصدمها بعنف في كتفها اليمنى. فترنّحت تحت وقع الضربة؛ أحسّت بذراع بشرية تلتوي عند خصرها ثم ترفعها في الهواء. وجدت نفسها تُقعي على صهوة جواد رشيدة.

وبينما كان الجواد وممتطيه يطيران عبر حقول قرية شاتو، أخذت صرخات پورو تتلاشى عبر المسافة.

لم تعرف پورو من أين جاء الجواد، ولا مَن كان يمتطيه؛ لم تعرف إلى أي مسافة حملها. فقد فقدت الوعي، وحين أفاقت وجدت نفسها فوق فِراش في غرفة بابها مغلق. خبطت رأسها في الجدران، ودقّت الباب بيديها حتى أحسّت بالإجهاد. ثم شعرت بشخص يدهن زُبداً ساخناً بفروة رأسها. ظنّت، لحظةً، أن أمها إلى جوار مخدّتها. فندّت صرخة ملتاعة من شفتيها: "آما!"(1)

"خطاياي تُغفر لي! كلّميني مرة!" قال الصوت الذي بجانبها.

---

1 amma: ماما. م

رفعت پورو رأسها المحموم. كان رشيدة. زعقت، ثم سقطت للوراء فاقدة وعيها على سريرها. تحلم بأنها كانت في وَجْرة، ودبّ أسود يمشّط شَعرها بمخالبه. فانكمشت رُعباً، في حين ظلّ الدبّ يكبر ويكبر. أخذها الدبّ في حِضنه الأشعث...

فتحت پورو عينيها وحدّقت في الفراغ الصاعد إلى السقف. كان شخص يفرك باطن قدميها. يضغط كتفيها برفق وبيديه يصبّ الماء بين شفتيها. وضع بفمها ملء ملعقة شاي من الزُبد الساخن مخلوطاً بالسُكّر الأسمر[1]. أخذت رشفة وبصقت الباقي.

نهضت جالسة في الفِراش. "أين أنا؟"

"أنتِ معي،" كان ردّه البسيط. جلس في كرسيّ خشبيّ عال أمامها. خفض عينيه؛ لم يجرؤ على النظر إلى پورو وجهاً لوجه.

سألت پورو في جرأة "لماذا جلبتَني هنا؟"

ردّ "سأُخبركِ لاحقاً"، ثم خرج من الغرفة تاركاً الباب موارَباً.

رأت پورو فناءً صغيراً يفضي إلى غرفة أخرى ذات مدخل إلى الشارع. فنهضت من الفِراش. اهتزّت ساقاها من تحتها. دارت حول الغرفة، تتفحّص الجدران. بعد برهة غامرت بالخروج إلى الفناء. في رُكن، كومة رماد. وبجانب الكومة صحن خبز، وإناء نحاسيّ، وقِدر. في كوّة بالجدار إبريق ماء. ولم تر أي دليل على وجود حياة.

---

1 gur: سكّر أسمر غير مكرّر، من عُصارة النخيل. م

مضت بخطوات متمهّلة نحو المدخل. الباب موصد بحزم فكأنه مصيرها. وضعت پورو رأسها على الباب، لكنه لم يأبه لوجهها الحزين ولا لدموعها. جمّعت پورو شجاعتها ودقّت على الباب بيديها. لم يُجد نفعاً، ولا لفت دقُّها انتباه أحد. حدَّقت فيما بين الشقوق. في الخارج هناك امتداد فسيح من أرض مفتوحة. لم تر أية منازل، لا أكواخ أو خيام أو أي دليل على وجود حياة. فمسحت وجهها بطرف قميصها ثم عادت أدراجها. صبّت الماء من الإبريق في راحتها ورشرشت به عينيها.

فُتح الباب. دلف رشيدة وثبّت رِتاجه من الداخل. وضع قُفلاً مزدوجاً على الباب.

قال رشيدة "پورو، لماذا تضيّعين كثيراً من الوقت والطاقة؟ تعالي إلى الداخل وتناولي شيئاً من الطعام. فلم تضعي شيئاً في فمكِ منذ يومين". لم يحاول أن يمسكها من يدها. لم يحاول حتى أن ينظر إليها نظرة شهوانية.

"رشيدة، ارحمني! أرجعني إلى أهلي!"، واحتضنت قدميه.

فرفعها رشيدة آخذاً إياها بين ذراعيه القويتين. "ومن يُخمد النار التي اندلعت في قلبي؟"، سأل. حاولت پورو تحرير نفسها، لكنها لم تستطع الفكاك من حِضنه.

مرّ النهار ـ والليل. ظلّ الباب موصداً، يحرسه رشيدة كالدَرَك. بعد مرور أيام بدأ يأخذها للخروج دقائق معدودات قبل الفجر وبعد

الشفق. رأت پورو أن كوخهما يقع وسط بستان كبير. هذا يعني وجود بستانيّ، لكنها لم تر أو تسمع أحداً يعتني بالثمار. الأيام طويلة. والليالي لا تنتهي. لكنها تمتنّ عموماً من أن رشيدة لم يقل لها كلمة جارحة، وشرفها لم يُمسّ. لاحظ قليلاً أن توسّلاتها كلعناتها.

قضت أسبوعين كاملين، بتقديرها الخاصّ، في مَحبِسها.

ذات يوم أحضر رشيدة فستاناً حريرياً أحمر برّاقاً ووضعه أمام پورو. وأمرها بفظاظة: "البسيه غداً؛ فسيأتي المأذون[1] ليُبرم النكاح. فجهّزي نفسك لهذا الوقت". استمرّ بنبرته الفظة المباشرة "يا امرأة، ما لم يتحقّق من قبل، يجب أن يتحقّق الآن."

سقطت پورو ثانية على قدمَي رشيدة تناشده. ظلّ ساكناً. "پورو، إن توسّلاتكِ لن تُجدي نفعاً. فلا تجعليني أحسّ كأني ارتكبتُ جريمة. أحلف بالله، لا أُطيق رؤياكِ تبكين طوال الوقت".

سألته "قُل لي، أُناشدكَ باسم الله ربّكَ، لماذا فعلت بي هذا."

فردّ بسذاجة "ربما كنّا زوجاً وزوجته في حياة سابقة. لكن لماذا تشغلين بالك بهذه الأشياء؟ فما وقع قد وقع. وأعدكِ أنه لن يمسّكِ سوءٌ بقية حياتكِ". واصل بعد فترة "هل تعرفين أن عائلتينا، عائلة الشيخ وعائلة الساهوكر، في خصام منذ أجيال؟ جدّكِ سلّفنا 500 روبية بفائدة مركّبة وأخذ منزلنا رهناً. ولم نستطع استيفاء الرهن. فصادر منزلنا، وطرد عائلة الشيخ بأجمعها. فصرنا مشرّدين. لم

1 maulvi: المأذون الشرعي، كاتب عقد الزواج. م

يكن ذلك كلّ شيء. كان وكلاؤه يستخدمون لغةً شنيعة بحقّ نسائنا، كما احتفظ عمّكِ بعمّتي في منزله ثلاث ليال. بعلم جدّكِ! صارت عائلة الشيخ مثل حزمة قصب مُصّ منها العصير كلياً. ذرفت دموعاً مريرة من الدم وهي تواجه زمانها. فجعل جدّي أعمامي يقسمون على أن ينتقموا من هذه الإهانات. حين سمعنا عن خطط زفافكِ، دار كلام عن تسوية الحساب القديم. أزعجوني؛ أرغموني على أن أحلف على القرآن أن أخطف ابنة عائلة الساهوكر قبل زفافها".

سمعت پورو الحكاية عن مصيرها مذعنةً. واصل رشيدة: "والله شهيدٌ عليّ أنّي وقعتُ في غرامكِ في أول يوم رأتك فيه عيناي فيه. كان غرامي وتحريض عشيرة الشيخ هما ما يدفعاني لفعل هذا. لكني لا أُطيق رؤياكِ حزينة هكذا".

"إن كان عمّي قد خطف عمّتكَ، فما ذنبي أنا؟ لقد حططت من قدري وحولتني إلى مشرّدة لا بيت لها". أمسكت پورو رأسها بين يديها؛ كان وجهها مبتلاً بالدموع.

"ذلك عينهُ ما بلّغتُ به أعمامي، لكنهم وبّخوني ساخرين".

صاحت پورو "ولدى تحريضهم أخذت مني حياتي!".

"پورو، سأضع العالم تحت قدميكِ"، قال رشيدة بصوت يطفح بالعاطفة. "سأحبكِ ما حييت. ولن أعاملكِ كما عامل عمّكِ عمّتي".

"رشيدة، دعني أرى أمي ولو لمرة واحدة".

"يا امرأة يا طيبة، لم يعد لكِ مكان في تلك العائلة! لو سمحوا لكِ بالدخول مرة، فلن يشرب واحد من أصدقائهم أو أقاربهم الهندوس نقطةَ ماءٍ بمنزلهم. كما أنكِ معي منذ خمسة عشر يوماً كاملة".

"لقد أكلتُ طعامكَ وشربتُ ماءكَ، فقط. أنا..."، ولم تستطع پورو أن تتلفظ أكثر من ذلك.

"ومن سيُصدّق؟ سأتزوّجكِ أولاً ثم..."، ورفع رشيدة بصره نحو الفتاة بعصبية.

فكّرت پورو فيما قد كان عليه زفافها. ستُحَمَّم بزيت، وتُدلّك بعود من الكُركُم؛ وتُحمَّل ذراعاها بأحمال من الأساور العاجية الحمراء، ثم تُربط حول معصميها سلاسل بشُرّابات من صَدَف أصفر. كانت ستلبس رداءً من حرير خالص؛ ستركب إلى بيت رام شاند في محفّة؛ وتكون أجمل عروس في الدنيا... وعندئذٍ...

قالت أخيراً "لا بدّ أن والديّ يقضيان وقتاً عصيباً".

"أظنّهما يبكيان ويخبطان صدريهما كما فعل بالضبط جدّي وأعمامي حين خُطفَت عمّتي"، ردّ رشيدة دون أثر كبير من الشفقة في صوته؛ ثم أضاف بابتسامة ساخرة "فتّشَت عنكِ الشرطة، لكنهم بلّغوا أنهم لم يجدوا دليلاً. وكيف لهم أن يجدوا ذلك؟

لقد رشوناهم بـ 500 روبية. لنا الآن اليد العليا؛ معظم القرويين مسلمون؛ لا يجرؤ هندوسيّ أن يرفع عينيه أمامنا. يسعدهم الحظّ لو سلمت حياتهم وممتلكاتهم. هم يعرفون أنهم لو أرادوا الحفاظ على رؤوسهم فوق أكتافهم، فالأفضل أن يظلّوا هادئين". هناك مرارة بصوت رشيدة. ربما لم تنطفئ نار الانتقام القديمة بعد.

انبجس البغض في قلب پورو، بعد سماعها كلمات رشيدة. فقد استلّ منها حقّ ميلادها؛ نهب منها مستقبلها. ربما سلّم أبواها بضياعها وغادرا القرية.

سألته بهدوء "هل رحل أبواي إلى تايلاند؟"

"ليس بعد".

فسألته ثانية "كم نبعد عن قريتي؟"

"ليس بعيداً. لكنْ لا تحلمي بالذهاب إلى شاتو. حين تستقرّ الأمور، سآخذكِ هناك بنفسي. ربما بعد ستة أشهر أو نحوها".

في ذلك الصباح خطّطت پورو للهرب. لتفادي الشكّ، تناولت حلوى الرزّ والكاري التي أحضرها رشيدة إليها. وليلاً سرقت مفتاح الباب من تحت مخدّته. فيما بعد، وهو في نوم عميق، فتحت الباب بهدوء وخرجت من مَحبِسها.

أرعبها سواد الليل الفاحم؛ وكادت أن تعود. لم تكن على يقين إن كانت ستستطيع أن تجد طريقها إلى شاتو. قد تقع بين أيدي من هم أسوأ شرّاً من رشيدة! ثم هلّت وجوه أمها وإخوتها وأخواتها أمام

عينيها. أخذت الطريق الذي ظنّت أنه المفضي إلى بيتها. جعل نور الفجر القادم، المشهدَ أوضح نسبياً. ثم وجدت نفسها على الدرب الصحيح ورأت حدود قريتها.

انصرف الموت الآن. فجمعت قوتها وبدأت الركض. وصلت القرية وبلغت الحارة المفضية إلى بيتها. لم تكن السماء رمادية بعد، حين رأت نفسها عند عتبة بيت أبيها.

صلصلت پورو بالحلَقَة. فُتح الباب من جانبه الآخر فوقعت على أرض الفناء. فقد استنفدت كلّ قوتها؛ بمجرد أن وصلت انهارت. رقدت تعوي على الأرض الموحلة كحيوان جريح. وجدت والديها يقفان فوقها، بمصابيح زيت في أيديهما: رأت دموعاً تنهلّ من عينَي أمها. أحسّت بأمها تأخذها بين ذراعيها وتضمّها إلى صدرها، بينما انشقّت من قلبها صرخة لوعة.

حذّرها والدها "سيسمع الجيران. وتكون هناك زحمة". سدّت أمّ پورو فمها بحرف قميصها.

سمعت پورو صوت والدها "يا ابنتي، هذا المصير مُقدَّر عليكِ؛ ونحن عاجزون". فتشبّثت بأمها "عائلة الشيخ ستهبط علينا وتدمّر كلّ ما لدينا".

صاحت پورو "خذوني معكم إلى تايلاندا!"

"ومن يتزوّجكِ الآن؟ لقد فقدتِ إيمانكِ وحقّ ميلادكِ. لو جرؤنا على مساعدتكِ، لأمسينا أثراً بعد عين، دون أثر لنقطة دمٍ واحدة وراءنا تحكي مصيرنا".

"إذن افتكوا بي بأيديكما أنتما".

قالت الأمّ، بقسوة "يا ابنتي، كان أفضل لو متِّ عند مولدك! لو وجدتكِ عائلة الشيخ هنا لقتلوا أباكِ وأخوتكِ. سيقتلوننا جميعاً".

تذكّرت پورو كلمات رشيدة: "لم يعد لديكِ مكان في بيتكم الآن". لكن، ماذا عن خطيبها، رام شاند؟ ما الفرق بين أن تكون مخطوبة وأن تتزوّج؟ لماذا لم يتجشّم عناء المجيء لينقذها؟ لم يعد لها ثمة أمل؛ لا مهرَبَ إلا إلى الموت.

نهضت پورو خارجةً من الباب. لم يحاول أبواها أن يوقفاها. حين جاءت من هذه الطريق في الصباح الباكر، ظنّت أنها ستعود للحياة؛ ودّت أن تعود إلى الحياة من جديد، أن تكون مع أمها وأبيها. جاءت وكلّها أمل. والآن لم يعد لديها أمل، ولا خوف من شيء. ماذا سيؤخذ منها أكثر من الحياة؟ فجفّفت الفكرة دموعها كافّة.

جاء رشيدة يركض لاهثاً نحوها. أوقفت پورو خطواتها. حتى الموت، صفع بابه في وجهها. قبض رشيدة على ذراعها. فتبعته دون أن تنبس بكلمة.

في اليوم الثالث جاء المأذون مع اثنين أو ثلاثة رجال. أنجزوا مراسم قران پورو برشيدة. وبعد أيام أخبرها رشيدة أن والديها رحلا إلى تايلاند.

والدا رشيدة متوفيان. ليس لديه أخوات؛ أخوة فقط وأعمام.

قرّر أن يترك قريته إلى قرية أخرى، تُدعى صقّار، على بُعد أميال، حيث يملك رحيمة، وهو ابن عمّ بعيد له، بضع أراض. استطاع أن يتبادل بعضاً من أرضه بأرض من رحيمة ويبني بيته هناك. أخبر پورو عن خططه. لم ير أيّ ردّة فعل من جانبها ـ فبعد أن صرفها والداها من بابهما، لم يعد الرحيل عن قرية الأسلاف أمراً خطيراً. فما الفرق بعد ما قيل أو أُبرم؟ كلّ القرى سواء.

حزم رشيدة بقايا متاعه في عدّة صناديق صلبة، وشرع في الرحيل نحو صقّار. تبعته پورو كما يتبع العميان مرشدهم. وجدا منزلاً صغيراً على مسافة من منزل رحيمة. أول ما قابلت پورو من أقارب رشيدة، نسوة بيت رحيمة. لم يعذّبنها بأسئلة كثيرة؛ وددن فحسب أن يكتشفن إن كانت في حاجة لأيّ شيء لأجل بيتها الجديد وما إذا كان لهنّ أن يقدّمن أيّ مساعدة. مع ذلك، أحسّت پورو كأنها عِجلٌ شارد وسط قطيع غريب من الأبقار.

هناك المزيد من التغيير الذي يختزنه الزمن لها في جعبته. حتى ذلك الحين، لا يزال رشيدة يناديها باسمها الهندوسيّ الصحيح. وذات يوم، جلب معه غريباً فطلب من زوجته مدّ ذراعها. ووسم عليه الرجل الاسم الجديد الممنوح لها حين تزوّجت رشيدة. منذئذ، لم يعد اسم "حميدة" منقوشاً على جلدها، بحروف خضراء داكنة فحسب، بل بدأ الجميع يناديها به.

لكن، بأحلامها، كانت تقابل صاحباتها القدامى وتلعب في بيت

أبويها، ولا يزال الجميع يناديها پورو. وبأوقات أخرى، حميدة. حياة مزدوجة: حميدة نهاراً، وپورو ليلاً. لم تكن، في الواقع، هذا ولا ذاك؛ فهي مجرد هيكل عظميّ، دون هيئة أو اسم.

بعد ستة أشهر، بدأت حياة صغيرة تتحرّك وئيداً داخل قالب جسمها.

السماء رمادية كالحة. قرفصت حميدة وقد وضعت بين قدميها كيساً وعيناها تحملقان في الفراغ.

جاء رشيدة من الباب الأماميّ إلى الفناء. لم يبلغ أسماعَها وقعُ قدميه، ولا انطبع منظر قوامه في عينيها. كانت كالتمثال. جلس رشيدة إلى جانبها، ووضع ذراعه حول كتفيها وبدأ متعاطفاً "امرأة ربّانية...".

لم تتحرّك حميدة مبتعدة. قالت، بعد وقت طويل "أحسّ شيئاً يطعنني في بطني".

علّق رشيدة بعد فترة "أنتِ لا تخرجين ولا تقابلين أحداً. فبقائك وحيدة طول الوقت أدخل الكآبة إلى قلبك."

فردّت بمرارة بالغة "وأين أذهب؟ بمن أرتبط عداكَ؟"

لم ينبس رشيدة بشيء. أشعل النيران بالمدفأة، ووضع طيور السُمّان التي جلبها معه في الوعاء. بينما وضع ذراعه حول كتفَي زوجته مجدداً، إذ بدأ كلاهما بمراقبة الطيور وهي تُطبخ.

"أنتِ ربّة هذا البيت. سيلعب، بعد أيام، حولنا بفنائكِ كائن آخر. حتى لو لم تلقِ بالاً إليّ، فعليكِ أن تجرّبي الفرَح لأجل الوليد. فماذا جناه الصغير البريء معكِ؟"

فكّرت حميدة في اليرقة النحيلة داخل قَرن البِازلاّ. كانت تثير الغثيان.

"تحبّين البازلاّ مع السُمّان؟"، سأل رشيدة، وهو يراها مكوّمة أمام حميدة.

"إنها ناضجة أكثر من اللازم؛ فموسم البازلاّ انقضى. سيهلّ قريباً بايساك[1]". لم تتحمّل فكرة أن تأكل بِازلاّ ذلك اليوم.

قال رشيدة عَرَضاً "غداً أول أيام بايساك. سيكون ثمة عيد كبير".

بايساك! صدمت الكلمة أُذنَي حميدة كالجَرَس. ظلّت تصدمها . بايساك! بايساك! نهضت بسرعة وشغلت نفسها بعجن الطحين لخبز الشاباتي[2].

قال رشيدة "سيكون لطيفاً تناول الشعرية بعد السُمّان". دخلت حميدة، أحضرت الشِعرية وحفنة سُكّر أسمر. تذكّرت، ذات مرة، حين أخبرت والدتها وهي تسوّي الشِعرية: "أمي، أفضّل تلك

---

1 Baisakh: كلمة بنغالية، الشهر الثاني من الشهور الهندية، من 15 إبريل حتى 15 مايو. م

2 chapatis: خبز هندي مستدير مفلطح غير مخمّر، يُخبز على الصاج. م

المصنّعة بالآلة". فتردّ أمها بفظاظة: "حرام عليكِ، يا ابنتي، المسلمون فقط من يأكل الشِعرية المُصنّعة!". وقد جلبت الذكرى دموعاً إلى عينَي حميدة. ثم بدأت تضحك.

رفع رشيدة بصره، مندهشاً "ماذا يضحككِ؟"، فأخبرته وبدأت تضحك ثانيةً. تغيّرت ابتسامة رشيدة إلى ضحكة مكتومة خَجِلة.

استيقظت پورو، في الصباح التالي، على صوت طبول. مضت إلى السطح، فرأت فلاّحين تجمّعوا في الحقل - ريفيون أصحّاء البنية، طوال، يلفون حول خصورهم وَزَرات [(1)] جديدة، يحملون عصيّ خيزران ملمّعة تتلألأ في الشمس. كان الحشد حماسياً، مع مجموعات تتحرّك دون هوادة من طرف التجمّع إلى الآخر. كان بعضهم على ظهور الجياد، مع زوجاتهم يجثمن خلفهم وطفل أو اثنين في المقدمة. كان آخرون على الأقدام، يقودون أولادهم من أيديهم، مع نسائهم يزحفن وراءهم. هناك شبّان صغار، يختالون بصدورهم العريضة المنفوخة كحَمام البوتر. هتاف كثير وصراخ؛ ثم انفجر الغناء. في أحد الأركان حفروا الأرض لمصارعة الرجال. شمّت حميدة، من هذه المسافة، رائحة الحلوى، حلوى الجلبي[(2)]

---

1 lungis: يلبسها أهل الخليج تحت ملابسهم، أما الهنود فيلفّون بها خصورهم دون شيء فوقها، وهي لُباس داخليّ مصنوع من نوع من القماش الملوّن غير المخيط. تُستعمل في الهند للرجال والنساء. م

2 jalebis: حلوى مقلية مصبّغة، من الدقيق، بسُكّر كثير، من جنوبيّ آسيا. وتُستخدم أيضاً في العراق والخليج. م

الريّانة وحلوى الباكورا[1] الساخنة المقلية في الزيت. كانت ترى أكواماً من المربّى مفروشة في صوانٍ حديدٍ عريضة. ثقبت الفكرة قلبها مثل رمح صلب: إن أمها ولدت ابناً بعد ثلاث بنات وهذا أول بايساك يمرّ عليها! كان عليها أن تعطي أخاها الوليد أول رشفة ماء . تلمس شفتيه بورقة ورد غُمرت في النهر. وطبعاً قد جاء أقرباؤها لتقديم أمانيهم الطيبة... ربما شردت أفكار أمها يومها نحو أول مواليدها، پورو!

لم تعد بعينَي حميدة دموع. أمسكت رأسها بين يديها ببساطة، وظلّت حيث هي لفترة طويلة من الزمن.

أتى جَمع من الغِلمان الصغار بأزهار مضفّرة حول آذانهم عبر الشارع؛ يضحكون مغمورين بالمرح. رفع أحد الأولاد صوته وغنّى:

قعدت جنب البئر عذراءُ جميلة،

تدعك أسنانها، فتلمع كاللآلئ.

لا تخافي، يا جميلة. فمن يحبكِ

سيأتي ليأخذكِ بعيداً.

سيأتي ليسرقكِ بعيداً.

سيأتي من غير دعوة منكِ.

---

1 pakoras: حلوى شبيهة بالجلبي، لكنها مدوّرة منفوخة. م

ليجعلكِ ملكه ذات يوم.

فلماذا لم يأت رام شاند لأجلها؟ ألم يكن يحبها؟ رشيدة هو من أتى من غير دعوة منها؛ رشيدة هو من سرقها بعيداً وجعلها زوجته. لكن هل أحبها؟

كان الفلاّحون يرقصون البهانجرا[1] وهم يتقدّمون. يهتفون، قافزين في الهواء. ثم غنّى أحدهم، على سجيته مقاطع:

حين يلمع قُرط أنفكِ في الشمس

يترك الحارثون حرثهم.

تلتصق وَزَرَتكِ المبلّلةُ بردفيكِ

والمطر وابلٌ على ردفيكِ.

فلا تديري، أيتها العذراء الجميلة، لنا ظهركِ.

لماذا يُغنّون الأغاني في مديح البنات الجميلات؟ لماذا لم يدبّج أحد أغاني عويل على البنات في ورطتهن؟ لماذا لا توجد ترانيم لأولئك اللاتي قد نبذهن الربّ؟

هلّ جَمع بنات إلى الحارة. شابات، لكن يتبدّى نفاد الصبر من أنوثتهنّ الشابّة في حركاتهنّ. مررن بجانب راقصي البهانجرا. قنص الأولاد نظرات جانبية من البنات؛ تضاحكوا كالبنات، ثم

---

1 bhangra: رقصة هندية بنغالية تقليدية شعبية، لطائفة السيخ. م

ألقوا نكات فاجرة وهم يهدرون بالضحك. ماذا لو اعتقل الأولاد البنات فجأة وحملوهنّ بعيداً على جيادهم؟ ماذا لو خُطِفَت البنات كافة...؟ هكذا مرّ العيد في أول بايساك.

انتصف الصيف. والأرض تحترق، مثل فرن مليء بحُزَم عِصِيّ جافّة. حميدة، لا تهدأ: تقف، تجلس، ترقد ممدّدة على ظهرها. لكن لا شيء يُهدّئ رَوْعها؛ ولا حتى طاسات الماء التي تجرعها مرة بعد مرة. نصحتها النساء أن تغسل شَعرها وتأخذ حمّاماً، فلا يعرف أحد متى يأتي الوليد، عندئذٍ، لن يكون بمقدورها ترك فِراشها أياماً.

مع كلّ نوبةِ ألم تشحُب حميدة أكثر، حتى ابيضّ وجهها كالقطن. بالنسبة لرشيدة، فهي تبدو له بالضبط كما كانت، حين قبض عليها، ورمى بها فوق سَرجه. بيضاء كحجر الخَفّاف[1]. في ذلك اليوم خرجت صرخاتها من لوعة روحها؛ واليوم تنبثق من لوعة جسمها.

أرسل رشيدة طالباً أمّ رحيمة. ولدى وصولها، كانت آلام حميدة يتبع أحدها الآخر في تعاقب سريع. أرسلت أمّ رحيمة تطلب القابلة، وحينما جاءت فرشت السجّادة القديمة على الأرض ووضعت حميدة فوقها. رغم الفِراش الناعم، تألّمت حميدة من الأرض الصلبة، وأخذت تتأوه.

وقف رشيدة حارساً بالعتبة. كان يسمع أنّات حميدة الطويلة

1 حجر الخفّاف: حجر بركانيّ خفيف، مليء بالنخاريب، يُستعمل في الصقل. م

المخنوقة من الباب الموصد. تمنّى لو نال بعضاً من الألم إن لم يكن كلّه، من جسم زوجته إلى جسمه هو. لكنها كانت وحيدةً - في معاناتها.

روّحت القابلة على وجه حميدة. صبّت أمّ رحيمة ماءً، بملعقة، في فمها. سمع رشيدة حميدة تصرخ ثلاث مرات؛ ثم تناهت إلى مسمعه صرخة المولود الجديد. فتنهد تنهيدة أعقبها سكون طويل؛ وانقضى النزع بعد لأيٍ. ودّ أن يدخل، ليُدلّك أضلع زوجته، فيمنحها الراحة. ودّ أن يعوّضها عن أساها. فلم يجلب لها حتى الآن غير الدموع. لكن القابلة وأمّ رحيمة لا تزالان مشغولتَين بالداخل.

تصرّمت الدقائق ببطء، ولم يعد بالداخل صوت. غاص قلب رشيدة: ماتت حميدة؟

بعد ساعة كاملة، خرجت القابلة، قالت "مبروك يا بني. كرّم الله بيتكم بولد".

"كيف حالها؟"، ندّ السؤال من بين شفتَي رشيدة.

ردّت القابلة بابتسامة مطمئنة "هي بكلّ خير. هكذا تحمل شجرة العائلة الثمار. فلا يسقط الأولاد علينا من السقف"، تنشر حسّاً بالطمأنينة ساعد مئات من النساء على تحمّل مخاضهن.

حين دخل رشيدة، كانت حميدة راقدة بالفِراش وعيناها مغمضتان. وإلى جانبها، ابنهما، ملفوفاً في قماش أبيض، يمصّ

إبهامه. غمرَ رشيدةَ الانفعالُ. لقد فاز بقلب فتاة هندوسية. واستوفى الدَيْن كاملاً. لم تعد پورو الفتاة التي خطفها، ولا خليلته، ولا امرأة جلبها خادمةً بالمنزل. كانت حميدة، أمّ ولده.

أخذ رشيدة روبية فضية وحفنة سُكّر أسمر، ثم لوّح بهما فوق رأس ابنه. فتحت حميدة عينيها. يبدو أنهما تقولان "وماذا أيضاً تريد مني؟ لقد وهبتكَ نفسي، ثم وهبتكَ ولداً. ولم يعد لديّ المزيد كي أهبه". وأغمضت عينيها.

صبّت النساء سُكّراً أسمر ساخناً مخلوطاً باللوز بين شفتَي حميدة. أنعشها ففتحت عينيها من جديد. أحسّت بوجه ابنها الناعم وهو يحكّه في ذراعها العاري. سرى إحساس رطب بارد في جسمها. كأن يرقة نحيلة تصعد جسدها بطيئاً. ضغطت على أسنانها؛ أرادت أن تهزّ اليرقة عن ذراعها، تنقفها بعيداً عن جنبها، تنزعها كمن ينزع شوكة بأخذ رأسها بين ظُفريها، تقتلعها من لحمها مثل قُرادةٍ أو علَقَة، ثم تطرحها بعيداً...

بعد أربعة أيام من ولادة حميدة إبنها، طفح ثديها بالحليب. في اليوم الخامس، وضعت القابلة الوليد التي كانت تغذّيه بقطرات الحليب المضغوط من لفائف قطنية على ثدي أمه. فانبثقت عاطفة قوية غريبة في صدر حميدة. ودّت لو تضع الوليد على خدّها وتصرخ من فرحة قلبها. الولد لعبة مصنوعة من دمها هي، تمثال محفور استُخرج من لحمها هي. من بين العالم المزدحم، هذا الولد كلّ ما

يخصّها. فلم تعد تهتمّ إن لم تر ثانيةً وجوه أمها، أبيها، إخوتها أو أخواتها... تحدج ببصرها وجه ابنها الذي تمتزج بعروقه دماء أبويها ـ الأبوين اللذين صرفاها عنهما.

شدّ الولد ثدي أمه. شعرت حميدة كأن الولد يسحب الحليب من عروقها ويمصّه بكلّ ما لديه من قوة، كما استخدم والده القوة في نيلها. في نهاية المطاف، فهو ابن أبيه، لحم أبيه ودمه، وتَشَكّل مثله. لقد نما داخلها بالقوة، أينع داخل رحمها ضدّ إرادتها ـ وهو الآن يمصّ الحليب من ثدييها، سواء أحبّت ذلك أم لم تحبّ.

دارت الفكرة مرة ومرة في رأسها بإلحاح غادر: فهذا الولد... والد هذا الولد... البشرية جمعاء... الرجال جميعاً... الرجال الذين ينهشون جسم المرأة مثل كلب ينهش عَظْمة ومثل كلب يلتهمها.

بينما استمرّ الولد بمصّ ثدي أمه، كان عقل حميدة يمتلئ ويفرَغ مثل دِلاء ساقية فارسية.

ونتيجةً لهذا الصراع بين البُغض والحبّ، والحبّ والبُغض، ولد ابن حميدة وحبّ حميدة لزوجها، رشيدة.

انقلب الجوّ بارداً؛ أنبأت لسعة الهواء بحلول الشتاء. ذات صباح خرجت حميدة كعادتها إلى الحقول في ساعة مبكّرة جداً. كان الظلام لا يزال مخيماً حين وصلت إلى البئر الذي يستخدمه المسلمون وبدأت تُغسّل نفسها. بنور الفجر الرماديّ تعرّفت على

الفتاة، كامو، التي تعيش في حارتها مع والديها. وضعت كامو إبريقها على حاجز البئر لتُريح نفسها. تناولت إبريقها بسرعة حين رأت حميدة قادمةً نحوها؛ لكنه كان ثقيلاً إلى حدّ أنها لم تستطع رفعه إلى كتفها. بدأ ينزلق من بين يديها؛ فأمسكته من عنقه لتمنعه من السقوط. ندّت صرخة من شفتيها: "يا أمي!"

ذهبت حميدة إلى كامو. أرادت أن تأخذ الإبريق الثقيل من كتفَي الفتاة الهَشّة في عمر الثانية عشرة، لكنها تردّدت في أن تقوم بالحركة. نجحت كامو في أن ترفعه على رأسها. بدأت الاثنتان السير جنباً إلى جنب. رأت حميدة أنها مثل كامو، حافية القدمين، تلبس البنطال[1] القطنيّ الأخضر الخشن نفسه، غَزْل اليد، والقميص المقلّم المنسول عند الكتفين والمبقّع كلّه؛ كان شالها المتّسخ بالياً وشعرها أشعث حول وجهها من غير ترتيب. لم تُرِد حميدة قطّ أن تُصاحب كامو بشكل خاصّ، لكنها ذلك الصباح كانت مدفوعة إلى إيماءةٍ ودود.

علّقت كامو "الوقت مبكّر جداً"، وهي مطمورة تحت الإبريق. ودّت أن تطمئن من أن الوقت لم يتأخّر كما ظنّت.

"لم يطلُع الفجر بعد"، ردّت حميدة بصوت مُهدّئ. اطمأنت الفتاة؛ فوضعت إبريقها على الأرض. توقّفت حميدة أيضاً. استنار وجه كامو الشاحب بابتسامة واهنة. لم تر حميدة من قبل الفتاة

---

1 salwar: بنطال فضفاض، ملوّن مخيط، تلبسه الهنديات، تحت القميص الطويل kameez. م

تبتسم. فهي تزمّ شفتيها دائماً بطريقة لافتة، كأنها تمصّ شيئاً.

"كامو، تجيئين في هذا الوقت كلّ يوم؟"

"تأخّرت اليوم قليلاً؛ سأعاقب بالضرب"، ردّت كامو، وهي تمسك الإبريق من جديد. نزحت الابتسامة من وجهها مثل لون يبهت من قماش. كأن الكآبة القديمة عادت إليها.

"المرأة العجوز قريبتكِ؟"

"عمّتي". بدأ الإبريق ينزلق من ذراع كامو.

فقالت حميدة "أستطيع حمل الإبريق عنكِ"، دون أن تمدّ يدها. يعلم الجميع أنها مسلمة... حميدة زوجة رشيدة. وكانت كامو فتاة هندوسية.

ردّت كامو دون خجل "ستلوّثين إبريقي".

قالت حميدة ضاحكةً "لن ألَمس الماء. ويمكنكِ تنظيفه من الخارج". ضحكت كامو أيضاً ضحكة مكتومة، لكنها لم تُفلت إبريقها. واصلت كلتاهما السير.

لم تُمضيا بضع خطوات حتى زلّت كامو. فأمسكت حميدة الإبريق، مع ذلك سقطت كامو على كومة حجارة فالتوت قدمها. نحّت حميدة الإبريق جانباً وقامت بتدليك كاحل كامو براحتيها. غارَ الألم واستطاعت كامو السير ثانيةً. كلّما كانت قدمها تؤلمها،

تصرخ "ماي ماا"[1]. تكوّم الفتاة حظوظها العاثرة على كاهل أمها المتوفّاة. تسمع حميدة غالباً عمّة كامو تدمدم: "أنجب والداها هذه التعيسة لتعذبنا!" حين توفيت أمها، اتّخذ أبوها امرأة أخرى ثم انتقل للمدينة. رفضت ربّة بيت والدها أن تفعل شيئاً لكامو. فهُجرت كامو حتى من قِبَل أبيها. يقول الناس غالباً: حين تموت أمّ المرء، يصبح حتى الوالد الحقيقيّ زوجَ أمّ. وحظّ حميدة التعس أن أصبح والدها الحقيقيّ زوجَ أمٍّ قبل أن يترمّل، وصارت أمها الحقيقية زوجةَ أب، دون أن تترمّل.

غدا الأفق الشرقيّ رمادياً. وأصبح بالإمكان رؤية حدود المنازل واضحةً. وصلت الفتاتان إلى ركن الشارع، ولما طغى عليهما الخوف من أن يراهما امرؤ، تناولت كامو إبريقها وهي تعرُج نحو البيت، في حين أغذَّت حميدة سيرها.

تلك الظهيرة، وبينما كانت حميدة تحاول أن تُشبع طفلها، فُتح بابها الخارجيّ عنوةً واندفعت منه كامو. نحّت حميدة جاويد جانباً وأخذت كامو بين ذراعيها. نسيت كامو كيف تبكي تقريباً، لكن دفء حِضن حميدة جلب فيضاً من الدموع لعينيها. فهاجت غرائز حميدة الأمومية. تمنّت أن تكون أماً لكامو غير المرغوبة؛ تُدلّلها، تجعلها فظّة وتُطلق العنان لنوبات غضبها؛ تأخذها في حِجرها وتسير وكامو بين ذراعيها؛ تقبّلها مرة بعد مرة.

---

1 Hai Ma: تدليل ماما. م

لكن حميدة مسلمة وكامو هندوسية. لكنها لا تزال تظنّ نفسها پورو، وقد علمت أن كامو لن تأكل شيئاً في بيتها. كثيراً ما ودّت حميدة أن تقطع كِسَراً من الخبز وتُطعم كامو بيديها؛ أن تمسك إناء الحليب للبنت وهي تشرب.

قامت حميدة من جديد بتدليك قدم كامو، دعكتها بالزبد وكبست عليها لفائف من قطن دافئ.

فجأةً، أصبحت كامو نافذة الصبر. بدا وجه عمتّها المقيت مثل بلطة أمام عينيها. فأخذت إبرة الخياطة تدّعي أنها ما جاءت من أجله. كما نفحتها حميدة قطعة سُكّر أسمر وحفنة لوز.

كانت كامو نادراً ما تغيّر ملابسها. فهي تلبس القميص المهلهل نفسه صيفاً وفي الأيام الأشدّ صقيعاً من الشتاء. ولا تنتعل شيئاً قطّ في قدميها. أعطتها حميدة خُفّاً جديداً. وضّحت كامو لعمّتها "وجدته في حقل القَصَب".

مع بزوغ نور كل صباح كانت حميدة تجرؤ، أن تساعد كامو في حمل إبريق مائها. وعلى كامو اختلاق كلّ نوع من الأعذار لزيارة حميدة: أحياناً لطحن الحبوب الصغيرة بالمِطحنة اليدوية؛ أحياناً لسحن البُهارات بالهاون. وقد تعرّف جاويد الصغير على كامو. حينما تخفق في الظهور، توبّخها حميدة بالنيابة عن ابنها. تتصرّف حميدة وكامو نحو بعضهما الآخر كأمّ مع ابنتها، إضافة إلى أنهما مثل صديقتَين مقرّبتَين. حميدة تعطي كامو أكلاً لتأكل وملابس لتلبس. فبدأ جسم كامو الهشّ يمتلئ؛ صار خدّاها الغائران

الشاحبان ورديّيَن مدوّرَين. وساعدتها حميدة في غسل شَعرها وتزييته وتضفيره.

ذات صباح مبكّر جاءت كامو، والوقت لا يزال ظُلمة. انفجرت في الدموع بمجرّد أن دَلَفت. تشبه ليمونة معصورة. حضنت حميدة البنت إلى صدرها وقبّلتها على جبينها، لكن كامو لم تستطع كبح نوبات نشيجها. فبلّلت شالها ويديها الدموعُ.

"تقول عمّتي إنني إذا جئتُ إلى منزلكم ثانيةً فستمصّ دمي من جسمي"، ونشجت كامو. ثم وضعت رأسها في حِجر حميدة.

سألت حميدة "لماذا؟ ماذا فعلتُ؟"

وضّحت كامو "تقول عمّتي إنها سمعت أنكِ هربت من بيتكم، وإني سأفعل الشيء نفسه"، وهي تكتم نوبات نشيجها.

صار نور الصباح أكثر إشراقاً. شعرت حميدة بشيء ينكسر داخلها كانت. تلك آخر مرة رأت فيها كامو.

قاست حميدة كثيراً؛ وجعلتها المعاناة تبدو طاعنة في السن. لم تكن كما في عمر العشرين، بل علّمتها تلك العشرون أكثر مما قد تتعلّمه في عمر كامل. أصبحت جادّة، وعميقة التفكير، مثل فيلسوف كبير في السن. غير أنها لم تستطع أن تضع أفكارها الكثيرة في كلام. تنهض عواطفها كالرُغاء فوق قمةِ موجة، وهي مشحونة ضدّ صخور التجربة، لترسُب من جديد في الماء.

تعرّج حميدة أحياناً على زوجتَيّ رحيمة. لم تكن تهتمّ بهما

خاصّةً، لكنها تنجذب نحو فتاة صغيرة شاحبة الوجه تعيش بالبيت المجاور. كان للبنت عينان كبيرتان حزينتان تخفضهما كلّما ترى حميدة. ولدى حميدة إحساس أن الفتاة تودّ التعرّف إليها، وكان هذا المشترك بينهما. لم تكن مخطئة. فقد علمت أن الفتاة تزوّجت منذ عامين، وأنها معتلّة من يوم زفافها. لم يعرف أحد كنه ما كان يلتهم الفتاة؛ فقد أصبح جلدُها في لون بصل الربيع؛ ووجهها أصفر كعود الكُركُم. قال بعضهم إنها مسكونة بروح؛ وقال آخرون إنها التقطت عدوى مرض غير معروف.

بدأت حميدة والفتاة تبادل البسمات حين تمرّ إحداهما بالأخرى في القرية. أرسلت حميدة بعض غَزْل الصوف إلى أمّ الفتاة لتنسجه مفرشاً لفِراشها. ومنحها هذا فرصة التعرّف إلى الفتاة. كان اسمها تارو.

كان على تارو أن تعود قريباً إلى زوجها. تنتابها نوبات إغماء؛ كلّما وجب عليها أن تعود إلى منزلها. وكلّ مرة ترجع فيها إلى أبويها، تكون أنحف من ذي قبل. عظمُها ينتأ من لحمها. لكن لم يفعل أحد شيئاً لمساعدتها.

حدث يوماً أن كانت تارو مع نفسها. فجلست حميدة جنبها، وبدأت تُلحف عليها بالأسئلة: "تارو، هناك بالتأكيد من يستطيع تشخيص متاعبكِ!"

"لا، لا أحد".

"هل جسّ أحد نبضكِ؟"

"عندي ما يكفي من المواد الحافظة ملفوفة في ورق مفضّض وزجاجات عَرَق".

"تارو، يجب أن تخبريني: لماذا تسمحين لهذا المرض أن يدمّر حياتكِ؟"

"سأُخفّف من ثقل العالم".

"ليس لديكِ الكثير لتُثقلي العالم به؛ ولن يُحدث ذهابكِ فرقاً كبيراً. فهل فكّرتِ يوماً في مشاعر أمكِ، من تجشّم متاعب تربيتكِ؟"

ردّت تارو بفظاظة "لم أعد أتحمّل المزيد. ستذرف بضع دموع ثم تنساني". ثم انفجرت بعد هنيهة: حين يتخلّى الأبوان عن ابنة بالزواج، يضعان أحبولة حول رقبتها ويُسلمان طرف الحبل الآخر إلى رجل قد اختاراه".

فاقترحت حميدة "ربما كانت المياه في قرية زوجكِ هي التي تزعج معدتكِ".

قالت تارو، في انفعال "على المرأة أن تتعود أيّ نوع من المياه".

"تارو، أنا صاحبتكِ. فلماذا لا تحكي لي؟"

"ماذا أحكيَ لكِ؟ حين توهَب فتاة للزواج، يحرمها الله من لسانها، حتى لا تشكو".

Twitter: @ketab_n

وافقتها حميدة "أنتِ على حقّ فعلاً".

"لا نفع مني لأبوَيّ؛ فلا يرغب الأبوان ابنة متزوّجة. كذلك، لا نفع مني لزوجي، لأن امرأة أخرى هي ربة قلبه وبيته".

سألت حميدة، مندهشة "تارو، تقصدين إخباري أن زوجكِ متزوّج من قبل؟ فلماذا وهبكِ أبواكِ إليه؟"

"لم يكونا يعرفان. إلى جانب ذلك، كان في ذلك الوقت يؤويها بوصفها خليلة فقط".

"كان أبواه يعرفان طبعاً".

"يعرفان قطعاً. كانت امرأة من طائفة دنيا[1]. رغب أبواه في أن يتّخذ زوجة من طبقتهم هم".

"ألم يكن لديهما أي فكرة عن البنت التي خطباها لتصبح زوجة ابنهما؟"

"يا أختي، من يعنيه أحزان الآخرين! كما أنهم يقولون: نحن نُطعم ونُلبس البنت. نعطيها مالاً لتصرف. فعلام تتذمّر؟"

فأعلنت حميدة "كأن الطعام والملبس هما كلّ ما تحتاجه المرأة!"

---

1 يُعرف لدى الهندوس نوع من التمييز العنصريّ: طائفة عليا، وطائفة دنيا، وتورّث الأخيرة عند الأسر الثرية، تخدم لتأكل فقط. م

"كان عليّ أن أبيع جسمي، لسنتين كاملتين، لقاء قَدر من الحساء وعدداً من الخِرَق. أنا كالعاهرة... كالمومس السوقية..." وطبّقت تارو قبضتيها؛ دارت عيناها في محجريهما مظهرتين بياضهما فحسب؛ وتصلّب جسمها كلوح من خشب.

لم يكن هناك أحد بالمنزل. فبدأت حميدة تمسّد أضلع الفتاة وتدلّك كاحلَي قدميها. أفاقت تارو برهة من الإغماء، لكنها ظلّت تدمدم: "لا تلمسيني! أنا امرأة وسخة! ألا ترين، أنا بغيّ، عاهرة، مومس سوقية..."، كانت الفتاة تهرف في حمق حين دخلت أمها.

"ماذا عليّ أن أفعل؟"، تندب أمها، حين سمعت تارو. "كأن القدَر لم يعد يكفيه ما سدّد من سهام إليّ، هذه الفتاة تضيف كلماتها اللاذعة كي تقتلني! ستجلب علينا هي وأخوها الموتَ. فقد لقط أفكاراً غريبة من مدرسته في لاهور، حشا بها عقل الفتاة بشتّى الهُراء".

احتجّت حميدة "آما، ليس لكِ أن تنكري إن الأمر كان قاسياً عليها".

"لو سلّمنا ابنة نختم على شفاهنا. نترك لزوجها أن يعاملها على هواه. هو امتياز للرجل"، وضّحت الأمّ.

انفجرت تارو "نختم على شفاهنا، ونضع أقدامنا في الأغلال. لا عدل بهذا العالم؛ ولا إله. يعيش الرجل على هواه؛ ولا إله يردعه. لقد خُلقت أغلال الربّ لأقدامنا نحن فقط".

وانتابت تارو نوبة أخرى. تُطبِق عليها نوباتها وتتصلّب قدماها. رشّت أمها الماء على وجهها وصبّت قطرات منه في فمها.

فُوجِئَت حميدة. كانت هذه أول مرة تصادف فيها فتاة لها مثل هذه الآراء ويمكنها أن تعبّر عن مكنونها بهذه الجرأة. كانت تريد غالباً أن تقول أشياءً كالتي عندها، لكنها لم تجرؤ على ذلك قطّ. ظلّت تارو تدمدم: "هذا دَجَل كبير. لقد خُدِعتُ... لم أتزوّج قطّ... أنتِ تكذبين؛ كلّ ما عندكِ كذّاب... فلماذا تحضنينني؟ خلّيني وحدي. اهربي مني..."، وكانت تؤكّد كلماتها بدقّ كَعبَيْها في الأرض.

"تارو، استجمعي نفسكِ. لا تُفشي، دون تفكير، كلّ ما يهلّ على بالكِ. فماذا يقول الناس لو سمعوكِ مصادفة؟"، وبّختها الأمّ، وعيناها طافحتان بالدمع.

تفيق تارو من الإغماء ثم تنهار مثل كيس منكمش.

واصلت أمها "لا تقولي هذه الأشياء الغبية حين تعودين إلى بيت زوجكِ. لا يهمّكِ كيف يتصرّف. فالله مطّلع دائماً على ما يدور. الله شهيد على زواجكِ".

"أمي، لو كان الله شهيداً على زفافي، فقد حنَث الله بوعده. فلم أُزفّ... أبداً...". وفغرت تارو عينين فارغتين في عوارض السقف.

تساءلت حميدة كيف تعجز تارو، تلك التي تجرؤ على قول مثل هذه الأشياء، أن تفصم علاقتها بمؤسسة الزواج الخؤون بطبعها.

كان الوقت آخر الظهيرة. نهضت حميدة وهي تتنهّد. لقد

شاهدت مآسي الناس. جعلوا متاعبها تبدو أقلّ شأناً. سمعت عن منازل لم تكن تأوي بيوتاً. حكاية تارو جعلت بيتها كأنه ملاذ آمن.

ودّت حميدة لو تنسى أن رشيدة خطفها وآذاها. فهي تشتاق لممارسة الحبّ معه بحميّة. عموماً، كان زوجها ووالد ابنها. هذا وحده كان صحيحاً؛ ووحده المهمّ. أما الباقي فمجرّد هَذر وكذب.

استقرّت حميدة في صقّار كمن تنتمي دائماً إلى هذه القرية. لم تُبد رغبة في الذهاب إلى مكان غيرها. تعوَّدت القول "لم آت هنا بناء على رغبتي، ولن أتركها بناء على رغبتي". كان ابنها جاويد في الثانية من عمره تقريباً. يركض عبر المكان معتمداً على نفسه. كان تفاحة عَينَيّ أبيه. يحبّ رشيدة أصوات ابنه الطفولية، والطريقة المحبّبة التي يتشبّث فيها بساقيه ويناديه "آبا!". يلعب الاثنان لعبة "الاستخفاء" في أوقات المساء ويستمتعان بمرح كبير. كما كان الولد محباً للمشاكسة. فهو يضع يديه في الطين المبلّل الذي تكسو به أمه جدار الفرن؛ يخلط الكُركُم والفلفل بلبنها المخضوض. امتلأ البيت بضحكات الطفل التي تنتشر إلى الآخرين كالعدوى.

ذات يوم جاءت امرأة إلى بابهم تبيع دُمىً. فسحب جاويد أمه نحو بائعة الدُمى. أعطت حميدة المرأة حفنة حبوب وبضعة ملابس قديمة مقابل لعبة من القشّ. وهي تتكلّم معها، سمعت كثيراً من الصخب. جاءت امرأة على حين غرّة تركض في الشارع صارخةً كمن مسّه الشيطان. لمّ الناس أولادهم وأقفلوا أبواب منازلهم.

كانت المرأة تلبس البنطال فقط، يغطّيها من الخصر حتى الكاحلين؛ بطنها عارٍ وكذلك ثدياها. سفعَت الشمس جلدها فصار بشكل رِقّ أسود. شعرها متشابك معلّق حول كتفيها كالحِبال. جسمها مخبوز بالوَسَخ كأنها لم تغتسل منذ يوم مولدها. تلوّح بيديها في الهواء، ثم تفرد ساقيها بطريقة خرقاء. لا تستطيع السير؛ بل تركض كالحيوان. أما ضحكها فكان شيطانياً. حين فتحت فمها كشفت عن صفّ أسنان غير مستوية. لا يدلّ جسمها النحيل المتفحّم قطّ على عمرها. كانت أشبه بهيكل عظميّ منها إلى إنسان حيّ. قبل فعل شيء لصرفها، خطفت المجنونة حفنة من الدُمى الطينية من سلّة بائعة الدُمى ثم هربت. نظرت بائعة الدُمى البائسة بازدراء إلى سلّتها المُستنفَدة. تُسمع ضحكات المجنونة الهستيرية وصرخاتها الشيطانية في صفّار من زمن طويل. فقد جاءت لتقيم هناك.

تهيم في الحارات. تأكل ما تيسّر مما قد تلاقيه في الحقول. تعطيها امرأة قروية أحياناً رغيفين من خبز الشاباتي فتفترسهما في نهم. وتعطيها الكثيرات قمصانهن القديمة لتغطي صدرها العاري. فكانت تقتلع الأزرار، وتمزّق القمصان، ثم تعلّقها فحسب حول رقبتها في مِزق حتى تهلهلها أيضاً وتصبح عارية الصدر من جديد. تخلع بنطالها أحياناً، وتمشي من دون ملبس مَخِيط. فتغطّي امرأة عندئذٍ خصرها ببنطال قديم وتستر أخرى ثدييها بقميص لا يُلبس، لتبدأ العملية كلّها من جديد.

صارت المجنونة جزءاً من حياة القرية. حين يضايقها الأولاد

الصغار، يعنّفهم الكبار بقسوة. أصبحت المرأة مصدر فزع للأطفال. فإذا تشيطنوا تهدّدهم أمهاتهم: "إن لم تتصرفوا جيداً فستأخذكم المجنونة". ويصبحون عندئذٍ كصغار الملائكة.

وجدت المرأة سقيفة في أطراف القرية. وقد فَرَش شخص طيّب حَشِيّة منسولة بأرضها. بدأ الناس ترك الطعام والماء لها. صارت السقيفة بيتها واعتادت قضاء لياليها فيها.

لم تؤذ المرأة أحداً؛ لم تسرق شيئاً قطّ. كانت تأخذ ما ينبذه الآخرون وتملأ بطنها بالفضلات التي يعطونها إياها. كلّ ما تفعله هو التنقّل والضحك بتهتّك مجنون.

بدأ قوام المرأة النحيل يمتلئ. ثم راح خصرها يتمدّد. فحاولت نسوة القرية ستْر عريها وإقناعها بأن تظلّ داخل السقيفة؛ غير أنَّ ذلك كلَّه لم يجد طريقاً إلى عقلها. ظلّت على ما هي عليه، تضحك بهستيرية وتتنقّل.

ذات مساء أخذ كبار القرية المجنونة من يدها وخلّوها في الظلام على بُعد مسافة من صقّار. "البعيد عن العين، بعيد عن القلب!"، طمأن أحدهم الآخر. "فلتعتنِ بها قرية أخرى الآن". لكنها عادت في اليوم التالي قبل الظهيرة إلى صقّار، ظلّت تهدر في الحارات كما كانت، ويُسمع ضحكُها الأهبل عبر الحقول.

"أيّ غاصب فعل بها هذا؟"، سألت نساء صقّار كلّ واحدة الأخرى، وهنّ يضغطن أسنانهن في غضب... "لا بدّ أنه حيوان متوحّش كي يضع امرأة مجنونة في هذه الظروف".

"لا شابّة ولا جذّابة؛ مجرّد أشلاء لحم لا عقل فيها... هيكل عظميّ حيّ... هيكل عظميّ معتوه... هيكل عظميّ قد جَمّعَت عظامه الحدآت والنسور"، فكّرت حميدة.

وراح بطن المجنونة يكبر يوماً بعد يوم.

في ساعات الصباح الباكر، والوقت لا يزال ظُلمةً، خرجت حميدة من بيتها، كمألوف عادتها، اتّخذت الممرّ المفضي إلى الحقول. ولم تكد تمضي ياردات حتى لاحظت خطوط شكل بشريّ جنب جذع شجرة. فجمّعت شجاعتها، وتسحّبت على أطراف أصابعها نحو هيئة الهاجع. كانت المجنونة. ميتة كقالب من صخر، وبين ساقيها وليد جديد، لا يزال ملتصقاً بأمه من حبل السُرّة.

ندّت من حلق حميدة آهةٌ ملتاعة. أغمضت عينيها وهي تتمايل، كمن على وشك السقوط. سرت رجفاتٍ باردة لأعلى وأدنى عمودها الفقريّ. فجنّدت شجاعتها ثم جرت عائدة للبيت لتحضر زوجها.

جاء رشيدة فجسّ نبض المجنونة. لم يكن ذلك ضرورياً، فالموت مطبوع واضحاً على جبينها. لكن الموت لم يستدع طفلها، الذي يدقّ قلبه بكلّ سريان قوة الحياة البدائية. يمصّ إبهامه اليسرى. غطّت حميدة جسمه بمفرش قديم جلبته معها.

"باسم اللّه!"، تمتم رشيدة وهو يفصم حبل السُرّة. لفّت حميدة الوليد بشالها.

سارت الأخبار بالقرية كضباب الصبح. أسقطت النسوة

الصحون التي كنّ يعجنّ فيها الطحين؛ تركن النيران تشتعل بمواقدهنّ وأسرعن إلى منزل حميدة. وكانت حميدة قد حمّمت وألبست الوليد، فرقد في مهده ناعماً جميلاً كحشيّة قطنيّة. يمصّ طرف قماشة نقعتها حميدة في حليب دافئ. كان جاويد يراقب ضيفه الصغير من علٍ بإحساس من يملكه.

"ليهبكِ الله بركته!"

"ليسبغ الله على بيتكِ النعمة!"

"ليُعمّر أولادكِ سنين طويلة!"

"تستحقّين رؤية الله عن قرب!"

جاءت النسوة، وباركن حميدة. مجّدن فعلة رحمتها، ثم عدن إلى بيوتهنّ. ودفن الكبار جثّة المجنونة.

في المساء، نظّف رشيدة زجاجة المصباح، وأشعل فتيلته. طرف الوليد بعينيه الكبيرتَين؛ كانتا فاتنتَين على ضوء الشُعلة. ظلّت حميدة تُنعم النظر في الوليد الصغير. أيّ خسيس رغب في جِماع جسم المجنونة المتفحّم؟ سألت نفسها. هل انسجمت مع الفِعلة أم هي اغتُصبت؟ هل أدرك الرجل أنه يرتكب فِعلة شائنة مع امرأة معتوهة؟ هل عرف ما قد يحدث للبذرة وهو يزرعها برحم المتشرّدة؟ لم تكن المرأة البائسة تعي حقيقة أنها ستلد ولداً. وكيف عانت آلام المخاض؟ ألم تعطف عليها أيّ قابلة؟ كانت رجفاتها تضيع حتماً في وحدة الليلة المظلمة؛ لا بدّ أنها صارعت عصف الريح وهي تتلوّى

من الكَرْب فوق الأرض الصلبة الباردة! لكن قوانين الطبيعة غير قابلة للتغيّر. كان الطفل يجهل لوعة أمه وهو يخرج إلى العالم. وقد هلكت أمه في آخر عملية ميلاده.

غلبَ النوم حميدة جنب المهد. كانت تحلم برشيدة يخبّ بجواده، وهي راقدة فوق سَرجه؛ تحلم باحتجازه إياها في كوخٍ بستانيٍّ ثلاث ليال وثلاثة أيام ثم يلقي بها للخارج؛ تحلم بنفسها تستحيل إلى مخبولة تركض في حارات القرية، وتبدأ بوادر حياة تتشكل داخل رحمها... ثم تلد طفلاً تحت ظلّ شجرة. ويشبه الطفل جاويد تماماً. يُطبق على ثدييها ويجرّب أن يمصهما بلثته التي لم تنبت فيها بعدُ أسنان. وكان يصرخ، فهو لا يجد أيّ حليب.

استيقظت حميدة فجأةً. كان وليدها الجديد يصرخ بكلّ ما في عزمه. فالتقطته ووضعته على صدرها. نظرت على نحو قلق ناحية جاويد، وقد راح تواً في النوم. تُحدّق في رشيدة، وقد جلس جنب الموقد في الفناء. إنه لم يهجرها، ولا طردها قطّ. تركن بأمان في بيته. فهو زوج عطوف. لقد وهبها جاويد الوسيم ذا الشعر المعقوص. والآن زادت عائلتها. بعث الله إليها ابناً آخر. فنهضت حميدة، وقبّلت ابنها الجديد على جبينه.

رضع جاويد ثديها حولين كاملين، ولم تفطمه من زمن بعيد. وقد سمعت حميدة أن بذر الكمّون الأبيض يُدرّ الحليب في ثديَي المرأة. فسفَّت ملء راحتها مع قدح من الحليب. وبعد ثلاثة أيام

امتلأ ثديا حميدة بالحليب. فقدّمتهما إلى طفل مجنونة صقّار كأنه ابنها هي.

بدأت شائعة حول لقيط في القرية تسري على مهل مثل شرارٍ صغير لمع في كتلة من روث البقر ناشراً ناره إلى كتل أخرى تكوَّمت فوقها. "المجنونة هندوسية. خطف المسلمون طفلاً هندوسياً. حوّلوا طفلاً هندوسياً على مرأى ومسمع الهندوس، إلى مسلم..." .

وكما تنقل قطّة قطيطاتها من مكان إلى آخر، كانت حميدة تحضن اللقيط إلى صدرها وتأخذه من الفناء الأماميّ إلى غُرف منزلها الخلفية. حتى ضمن عزلة جدرانها، توصّلت لمعرفة ما يُقال عن الطفل وأمه الميتة.

دعا الهندوس إلى اجتماع لمناقشة الأمر. سأل أحدهم "هل تأكّدتم أن المجنونة كانت هندوسية؟"، فردّ آخر "سمعتُ هذا بأُذنَيّ. إنها كانت ابنة تاجر غني من للاّ موسى. وقد مزجت زوجة زوجها الثانية نوعاً من السُمّ في طعامها، جعلها تفقد عقلها" .

وضّح أحدهم "قيل إن أهلها وضعوها بالسلاسل، باذلين ما في وسعهم لاحتجازها في البيت؛ لكن قِسمتَها كانت أن تتشرّد" .

قال رجل "بعينَيّ رأيتُ الاسم المقدّس "أوم" منقوشاً على ذراعها اليسرى"، وكان يدبّ على الأرض ليسم كلماته بمسحة من الحسم.

"أصحابي، أيّ غدر هذا! لدينا عيون مفتوحة على آخرها، ويرمون فيها التراب" .

"عارٌ علينا جميعاً! تركناهم يحوّلون ولداً هندوسياً لمسلم، كأنه أكثر شيء طبيعيّ في العالم".

ونسي بعضهم الأمر برمّته: "يا أصحابي، دعوا الأمور إلى أعنّتها. فلا نعرف أيّ روح شريرة أنجبت الطفل. ومن يريد أن يحمّل نفسه عبء ابن امرأة عاهرة؟"

فردّ متهوّر في حسم بأعلى صوته "مغفّل! المسألة بين إيماننا وإيمانهم. لو تركنا هذه المسألة تمرّ دون مقاومة اليوم، فكلّ مُناهم غداً أن نصبح جميعاً مسلمين. ألا ترون كم صار سلوكهم غَرورا؟"

اختنق جوّ الغرفة بالكراهية. "سنستردّ الولد؛ وسنرى من يجرؤ أن يكفّ أيدينا".

"لن يُتعبنا في تربيته كثيراً. يمكننا جمع اكتتاب ندفعه لامرأة السقّاء كي ترعاه".

"لا نستطيع قطعاً أن نكون جماعة لا نفع فيها، حتى نعجز عن تحمّل تربية طفل واحد صغيرا"

"لا نعرف إن كان الولد سيصبح أصمّ أبكم أو أهبلَ مثل أمه؛ أو ربما يشبه...".

"وفيم يهمّ؟ حين يكبر يمكنه أن يكنس أرض المعبد. فكلّ ما يريده يومياً وجبتان مُشبِعتان. ويمكننا طبعاً تزويده بذلك!"

وأطرى كلٌّ شجاعة الآخر. كان كثير من التبجّح والتربيت على الظهر.

"قد يكون لزوجة السقّاء آراؤها الخاصة في المسألة. فالأفضل أن نستفسر منها قبل أن نفعل أيّ شيء".

"لن تجرؤ على معارضتنا. سنصبُّ براحتها الفضّةَ ثم نفتتح الموضوع".

"إننا نحسب فراخنا قبل أن تفقس... فدعوا الولد يكبر قليلاً... أم سيختنونه؟"

"هل تريدون التراجع الآن؟ إن لم تستطيعوا فعل القليل من أجل إيمانكَم، فاذهبوا وأغرقوا أنفسكم في البحر".

"لو حرف أحد الماء عن حقولكم نحو حقوله قبل أوانه، لا يدور بفكركم أن تشقّوا جمجمته. لكن حين يتعلّق بسرقة أولادكم منكم، ينزّ من أفواهكم العفن".

ومرة أخرى شُحن الجوّ بالكراهية، كراهية كثيفة كدُخان مدخنة الفحم.

بدأ الهندوس، في ما بعد، يُسدّدون إلى رشيدة نظرات سوداء، كلّما صادفوه في القرية. تظاهر رشيدة أنه يتجاهلهم، لكنه حذّر زوجته، واقترح بمزاج معتدل أن الأمر لا يستحقّ أن يهدروا وقتهم لاتّخاذ أمر فيه. وكلّما قلّب رشيدة الموضوع، غاص قلب حميدة. ظلّت تغذّي حُزمة الجِلد والعَظم ستة أشهر من ثدييها، حتى صار يبدو سميناً لحيماً كابنها جاويد. كان ينظر إلى حميدة على أنها

أمه؛ تتبعها عيناهُ كلّما تحركت في البيت. يمدّ ذراعيه إلى رشيدة كأيّ طفل صغير نحو أبيه. لماذا لم يفكّر الهندوس في أخذ الوليد منذ اليوم الأول؟ لماذا تركوها تقضي ستة أشهر من الليالي المؤرّقة؟ لماذا تركوها تبتلع حِفناً من بذر الكمّون، وتُحيل الدم في عروقها إلى حليب في ثدييها؟ لماذا جعلوها تغسل ملابس الطفل المتّسخة حتى صارت يداها خشنتَين قاسيتَين؟ لماذا؟ ولماذا؟ ولماذا؟

ذات يوم، أرسل كبار الهندوس في القرية في طلب رشيدة.

نشف الريق بفم حميدة. هل سيؤذون رشيدة؟ هل يهينونه؟ لقد حمّلت هذا برأس زوجها. ناشدته أن يأخذها معه. سترد على الأسئلة جميعها. ستترافع نيابة عن الولد. لكن رشيدة لم يقتنع بأيّ من هذا، وذهب وحده إلى المنزل حيث يمثُل فيه أمامهم.

هناك جَمْع من كبار الهندوس يتكئون مبسوطين على فُرش ممدّدة في فناء؛ كانوا ينتظرون رشيدة وصحبه المسلمين. جاء رشيدة وحده وبنبرة واقعية اطمأن على صحّتهم. تبعه صمت متوتّر.

"حسناً، ماذا تنوي فعله؟ هل تنوي أم لا أن تعيد إلينا الولد؟"، سأله أحدهم بوقار، وهو يمرّر لَيّ الشيشة إلى جاره.

"أيّ حقّ لي أن أهب أو أمنح حياةً؟ ذلك أمره كلّه لله، هذه عطيّته، وهو حكمه"، ردّ رشيدة، وهو يلمس جبينه ويرفع بصره نحو السماء.

فردّ واحد بنزق غاضب "هذا كلام معسول؛ فلنهبط إلى الوقائع!"

"الله، من رحمته المطلقة، اختارني لأُنقذ حياة الطفل؛ لو تأخّرت ساعتين، فربما افترس الولدَ قطٌّ أو كلب وحشي. قضى الله بحياةٍ أطول للولد...".

"صحيح! إن قضى الله أن يمنحه حياة أطول، فليس لقوة أرضية أن تقطعه. لكنك تعلم بلا ريب أن أمه كانت امرأة هندوسية. ولا نستطيع أن نسامح في سلب طفل هندوسيّ...".

"أصحابي الطيبين، لم أكن أعرف كُنه المرأة، هندوسية أو غير. فهي كانت تأكل الطعام من بيوت الهندوس كما من بيوت المسلمين...".

ردّ واحد نَزِق "كانت مجنونة. ولا أظنكَ فقدتَ عقلكَ، صحيح؟"

"لو توليتم أمر الطفل من أول يوم وربّيتموه، لما كنت سأنطق بكلمة. حين أخذناه كان حفنة عظام. وقامت زوجتي بتغذيته مع رعاية متناهية ستة أشهر، فأنقذت حياته. وجئتُم الآن فجأة تهتمون بمستقبله. يا أصحابي، حذارِ من غضب الله! إنه سبحانه من يقضي بمن يربّي الطفل، أنتم أو أنا. ماذا تظنّون أني سأجني منه؟"، وتخلّلت نبرةُ صدق صوتَ رشيدة، ففكّر بعض الهندوس أن يخلّوا بين رشيدة والرَسَن الذي طوّق به عنقه.

ثم تكلّم أحد الهندوس، بقليل من اللطف "لا نريد أن يخرج الأمر من بين أيدينا. فالطفل لا ينتمي إليكَ ولا إلينا. لكن هذه مسألة دينية، وليس لأحد أن يقف في طريقها. فلماذا تضع حياتك

في محكّ الخطر؟ إذا أضمر أحدٌ في رأسه أن يؤذيك، فلا تقُل إننا لم نحذّركَ! عليك أن تدرك الأحسن لك وتعطينا الطفل بكامل إرادتك. وإن أردت تعويضاً عمّا تحمّلتَ من كُلفةٍ فسندفع لك".

فأجمع الآخرون "طبعاً... أكيد".

"ليُسبغ الله عليكم من رحمته!"، هتف رشيدة، ممسكاً أُذنيه بيديه.

"لدينا هنا امرأة السقّاء. سيصحبك بعضنا إلى منزلكم لإحضار الطفل. سنُطهّره ثم نعيد تحويله إلى الهندوسية".

فناشدهم رشيدة "لآخر مرة، أرجوكم"، وضمّ راحتَيه كمن هو في صلاةٍ "اعطفوا على الطفل، دعوه يبقى حيث هو. فزوجتي ترعاه كأنها حملته في بطنها".

"إننا نكلّمكَ بصراحة، ونوضّح المجرى الصحيح الذي عليك أن تسلكه. إذا عرفت ما هو في صالحك، فتصرّف كعاقل ووافقنا الرأي. أو تحمّل العواقب. فنحن نعلم تمام العلم أن السمن لا يلصق إلا بالإصبع المعقوف".

وقف كبار الهندوس يشيرون أن الجدل وصل إلى خاتمة. انبثقت امرأة السقّاء، رأسها مغطّى بشالها. لا مفرّ. فنهض رشيدة آخذاً الجمع إلى منزله.

كانت حميدة تقف على العتبة، عيناها مسمّرتان على الزقاق. رأت نظرة رشيدة الكسيرة، والناس معه. غاص قلبها. ذكّرها هذا

باليوم الذي خُطفت فيه من أمها، وفُصلت فيه عن أبيها، وأُبعدت فيه عن إخوتها وأخواتها. أصبح اللقيط جزءاً من دمها ولحمها. جرت حميدة للداخل، تلتقط الطفل لتضمه إلى حضنها.

دخل رشيدة فناءه، كمن ضيّع دربه. لم يكن عليه أن ينبس بكلمة، ولا طلبت منه حميدة تفسيراً. تردّدت امرأة السقّاء أن تأخذ الطفل من حِضن حميدة.

أمرها أحد الهندوس بنبرة قاسية "أسرعي! فقد تأخّر الوقت. ولدينا أشياء أخرى لنفعلها".

أخذت زوجة السقّاء اللقيط من بين ذراعَي حميدة. تشبّثت يدا الولد بشال حميدة وشدّه عن رأسها. ففتحت زوجة السقّاء يد الطفل عنوة لتحرير الشال. أحسّ الطفل باللمسة الخشنة من يدين غريبتين، فبدأ يبكي.

قعدت حميدة أرضاً. سمعت بكاء الولد وهو يتردد بعيداً عبر الحارة. فظلّ الحليب ينزّ من ثدييها ويبلّل قميصها.

في تلك الليلة، لم يُطبخ طعام ببيت رشيدة. سأل جاويد أباه "آبا، إلى أين يأخذون أخي الصغير؟ آبا، متى يعود أخي إلى البيت؟"، وتطلّع رشيدة في ابنه ونكّس رأسه.

فكّرت حميدة في كامو ثم في اللقيط. لماذا يجب عليها قطف الأزهار التي اقتلعها الآخرون ونبذوها جانباً؟ أيّة قوة قسرية تجعل ماءها يذوي البراعم، وتحاول هي أن تُحييها؟ مع ذلك تُبعد عنها

وتُخلّى في عزلتها! الوحيد الذي لبث بجانبها كان رشيدة؛ رجلها، والد ابنها.

مرّ اليوم التالي. ويوم بعده. في اليوم الرابع، لم يعُد أهل القرية يتكلّمون في غير مصير اللقيط. كانوا جميعاً يقولون: "الولد على شفير الموت؛ فهو يلفظ كلّ قطرة حليب تنزل في حلقه".

ضربت حميدة رأسها في الجدار وذرفت دموعاً مريرة. كان ثدياها طافحَين بالحليب والولد مفطوم بعيداً عنها. أيّ جحيم فغر فاهاً بين ثدييها الموجعين وشفتَي الطفل الجائعتين!

"الولد فُطم فجأةً؛ وهو محكوم بالمرض".

"إذا مات الطفل فستضرب قريتنا بالتأكيد لعنة".

"رجوتُ زوجي أن يضع في رؤوس الآخرين بذرة إحساس، فيعيدوا الصغير من حيث أخذوه".

"لدينا أطفال. ولعنة الطفل قد تكون رهيبة".

"زوجي عنيد فوق العادة! أخبرته من البداية أن مَن يستخرج الأشياء من مدافئ الناس يحرق أصابعه".

"سمعتُ أن آخر ليلة أعطت فيها امرأة السقّاء الولد حليباً بارداً ليشربه. ومن يومها لم يعد كما كان".

"أنّى لطفل هشّ مثله أن يُزوّد بحليب جاموسة؟ طبيعيّ أن يمرض فوراً".

"لا، لا، لا - هو الحزن الذي يفترس الطفل. فمن يوم مولده، لم يرَ امرأة غير حميدة. فكيف نستثنيه أن يتعوّد شخصاً آخر!"

"الطفل البائس! ليس عنده لسان يحكي به ما يريد".

كان اللقيط أساس أيّ حوار بين نسوة الهندوس.

مرّ اليوم الرابع. والخامس. الصباح التالي، اندفع ثلاثة رجال إلى فناء رشيدة.

"خُذه! نترك حياته وديعة عندك! ما دمت تستطيع إنقاذه، فهو لكَ!"، وخلّفوا دمية شمعية صفراء ملفوفة بكتّان أبيض في حِجر رشيدة. كان الطفل في حالة إغماء.

جاش الغضب بوجه رشيدة. لديه رغبة قوية في أن يجَلد الرجال؛ ودّ أن يصرخ: "ألستم الزملاء الذين عرضوا عليّ تلكم العملات الفضّة ليعوّضوني عن ستة أشهر من الخدمة؟ ولأن الطفل الآن على بُعد رِجْلٍ من القبر، تعيدونه لي! خذوه حيث ترغبون واذهبوا إلى الجحيم من هنا!"، لكنه رأى التعبير الحزين على وجه حميدة، فقرّر أن يبلع كبرياءه.

بعد أسبوع رأى أهل القرية اللقيط يقرقر بالضحك ويلعب سعيداً في فناء حميدة.

كانت والدة رحيمة العجوز تفقد النور تدريجياً من كلتا عينيها. ماتت واحدة من زوجتَي ابنها وهي تلد بنتاً؛ ولم تكن الأخرى على

وفاق معها. والمرأة العجوز نشيطة في سنّها. تهتم بأمور المطبخ؛ تغزل وتنسج وتملأ المنزل بمفارش أسرّة من كلّ حجم؛ تفرز الحبوب، تطحن الدقيق بالمِطحنة اليدوية، تزغّب القطن للغَزْل، وتمخض اللبن. توفّق في أداء هذا كلّه، حتى مع نظرها الحاسر. مع ذلك توبّخها زوجة ابنها قائلةً إنه منذ أن فقدت الشمطاء نور عينيها لم يعد أحد يناولها الماء في إناء فخّار.

ذات يوم جاءت أمّ رحيمة إلى حميدة ترجوها أن تأخذ إجازة أسبوعين لتصحبها إلى قرية أخرى، حيث يُشاع عن رجل أنه قادر على علاج ضعف النظر.

سألت حميدة "آما، وأين مستقرّ هذا الشاطر؟"

"يا ابنتي، ليس ذكياً. غير أنَّ الآلهة المقدّسة قد كرّمته بقوَى الشفاء. وعنده نبع. بلّغوني أنه لو غسل المرء عينيه بماء هذا النبع بعد صلاة الصبح، لشفت علّة العين في أيام معدودات. يقولون إن كثيراً ممّن فقدوا نور أعينهم، ارتدّ عليهم البصر. كما يعمل صُرراً من الطمي يومياً من قاع النبع".

سألتها حميدة ثانية "أين يعيش، يا آما؟"

"عند راتوفال. للمقدّس بضع خيام أُقيمَت عند النبع لراحة من يأتون من أيّما بلد بعيد".

ثقب اسم راتوفال أُذنَي حميدة كالإبرة. فمن حقول شاتو كانت تحدّق في شوق إلى الممرّ المفضي نحو راتوفال. تلك هي الطريق التي

كان سيتّخذها رام شاند. كان سيأتي فوق جواد مزركش السَرج في بهجة، كما يفعل العرسان؛ تلك هي الطريق التي كانت ستشقّها محفّة زفافها محمولة فوق عاتق أربعة من الحمّالين.

نهض ضباب أمام عينَي حميدة؛ كان عقلها مفعماً برغبات لم تُشبع. ألا يمكن أن تراه ولو مرة، لتعرف هيئته؟ ألا يمكن أن تزور قريته ولو مرة؟

فرّت الكلمات من بين شفتَي حميدة "آما، سأذهب معكِ".

"ليهب الله زوجكِ وأولادكِ طول العمر! ليمتلئ ثدياكِ لتطعمي أولادكِ الكثيرين!"، وانصبّت البركات تباعاً من المرأة العجوز.

"آما، عليكِ أن تحتالي على والد جاويد. فلن أنبس بكلمة واحدة".

"لن يجرؤ أن يعارضني؛ فهو مثل ابني".

بالنسبة لحميدة، كانت الليلة مفعمة بالجدل مع نفسها. "ماذا يعني لي رام شاند؟ لن أرفع عينَيّ كثيراً لو مرّ قربي! ماذا سأفعل بقريته؟ يطيب له أن يعيش فيها طويلاً قدر ما يهوى. آما سوف تعالج عينيها، ونعود. يا أيتها الساذجة، لماذا تشتاقين لرؤيته؟ لقد طرحكِ من باله مثل كابوس...".

لم يعترض رشيدة على ذهاب زوجته إلى راتوفالٍ. وبقي جاويد عند والده. أخذت حميدة الولد الأصغر معها. وأُرسلت خادمة رحيمة العجوز مع المرأتين.

اتّخذت العجوز والطفل مقعديهما بالمقدّمة جنباً لجنب مع سائق الإكا[1]. تأخّرت المرأتان مع متاعهما. وهزهزت حركة الإكا الوليد فنام.

بعد فترة قصيرة، غلب حميدة النعاس أيضاً. حلمت بنفسها تتكئ على وسادة مزركشة داخل مِحفّة فضيّة. تُثقل ذراعيها الأساور؛ وراحتاها مصبوغتان بأحمر الحنّاء. تتمايل المِحفّة على جنبها، وينزلق الشال عن رأسها. تضبط وضعيته، فتصلصل أجراس الشُرّابات في ذراعيها.

أمّ رحيمة تهزّ حميدة من كتفها. "الوقت بعد الظهيرة بكثير. عليكِ بتناول بعض الطعام".

أفاقت حميدة مذعورة. تلاشت المِحفّة، والأساور، وأجراس الشُرّابات، وعلامات الحنّة. وجدت نفسها بمقعد الإكا الخلفيّ، جنباً إلى جنب مع أمّ رحيمة. أوقف السائق الإكا عند قرية جنب الطريق ليُريح فرسه ويدع مسافريه ينعشون أنفسهم. ففتحت أمّ رحيمة صُرّة، ناولت الخادمة وسائق الإكا خبز الشاباتي المقلي، وشاركت بقيته مع حميدة.

قال سائق الإكا "لنقضِ على الأكل بسرعة قدر المكن. سأمنح فرسي الراحة في الليل، لأعود مبكّراً في الصباح". أنهوا وجباتهم وصعدوا الإكا. خلّت حميدة رأسها إلى جانب وخلال دقائق عادت

---

1 ekka: عربة هندية بدائية يجرها حصان واحد، تشبه الحنطور. م

إلى مِحفّة عرسها تتمايل رفيقاً على درب لا ينتهي نحو راتوفال. تناهى صوت المزامير والطبول إلى مسمعها ثم أُحيطَت المِحفّة على حين غرّة بفرق الزُمّار وقارعي الطبول... تلك طبعاً راتوفال، حيث كانوا يرحّبون بالعروس الجديدة... والبنات تغنّي... رفعت امرأة وشاح عرسها... ثم وضع شخص طفلاً باكياً في حِجرها... وكلّما زاد بكاء الطفل ضحكت المرأة، ويجلب هذا حظّاً طيباً للعريس...

كانت أمّ رحيمة تهزّها من كِتفها. "كم أنت نؤوم اليوم! الولد يبكي منذ فترة".

قالت الخادمة "مررنا بموكب كبير، بفرقة بعد أخرى من العازفين. وكنتِ تنامين وسط الجلبة".

اقتربت الإكا من راتوفال. ترجّلوا قرب النبع حيث جعله المقدّس مركزه. في محلّ الخيام، أُقيمت بضعة أكواخ طينية للحجيج.

رتّبت الخادمة لهما المتاع في الكوخ واصطحبت أمّ رحيمة لترى المقدّس. فردت حميدة قماشة على فَرشة ووضعت الولد لينام. وقفت على عتبة الكوخ تُحدّق في الحقول. بعد زمن طويل وصلت إلى راتوفال... لم يستدعها أحد. ولا قَدِم أحد لاستقبالها. لا أحد عزف مزماراً أو ردّد لها أغنية ترحيب. لا أحد دسّ أسورة في ذراعها؛ لم تُسمع خشخشة أصداف معلّقة بشرّابات من أساورها؛ ولا سُحِنَت ورقة حنّة لتلوين راحتيها.

أخبر المقدّس أمّ رحيمة أن علاجها قد يستغرق ثلاثة عشر

يوماً. عادت الخادمة إلى صقّار في اليوم التالي. وبقيت المرأتان مع الطفل لرعاية أنفسهم.

كرّت الأيام دون أن تدخل حميدة القرية. لم يكن لديها مبرّر ولا جرأة. كانت تريد أن ترى الشكل الذي يبدو عليه منزل رام شاند؛ لتراه دون أن يتعرّف عليها هو أو غيره. وصارت أكثر قلقاً مع مُضِيّ الأيام. عادت إليها أغنية قديمة منسية من زمان:

سنروحُ كما أتينا.

لم يرحّب بقدومنا أحد؛

لا يلوّح لوداعنا أحد.

يا إلهي، إجعله يعرف أنّا أتينا!

مرات كثيرة طفرت الدموع في عينيها؛ مرات كثيرة كتمت نوبات نشيجها. تركت الولد في رعاية أمّ رحيمة وراحت تتجوّل في الحقول.

سألت نفسها "هل لي أن أتعرّف عليه لو صادفته؟ أعرف بالكاد هيئته، وكان ذلك من سنين عدة!"

راحت تسأل الفلاّحين العاملين في الحقول: "أخي، لمن هذه الأرض؟ أريد قليلاً من الجَزَر. نحن غرباء هنا". وكان الفلاّحون يسمّون ناساً شتّى. لا أحد قطّ اسمه رام شاند.

حين نطق أحد الفلاّحين ذات يوم اسم رام شاند حقاً، لم تصدّق

حميدة أُذنيها. بدأ رأسها يدور. جلست تحت شجرة السَنط. غارت القوة من ساقيها وصارت قدماها باردتَين كالثلج. بعد لحظات، قال الفلاّح نفسه: "هذا السيد قادم". ثم جمّع الحمّص الذي قطعه وابتعد تجاه البئر.

لم تستطع حميدة كبح مدامعها؛ لم تمض خلف شجرة السنط ولا مسحتها بشالها. ورأت وجهه بالكاد من بين الجدول المنصبّ من عينيها.

"ما لكِ، سيدتي؟" استفسر رام شاند، واقفاً أمامها.

لم تستطع حميدة نطق كلمة واحدة.

"ماذا يوجعكِ، سيدتي؟" سمعته حميدة يسألها ثانيةً. التصق لسانها بسقف حلقها. هلّت الدموع سيلاً مدراراً، لكن لم تصدر من بين شفتيها كلمة.

نظر رام شاند حواليه قلقاً طلباً للعون. قبل أن يتمكّن من فعل شيء، سارت حميدة مبتعدة خلال الحقول كمن هي في نشوة.

كانت هذه آخر أمسياتها في راتوفال. عادت الخادمة من صقّار لتأتي بهم. عليهم الرحيل في الصباح التالي.

لم تستطع حميدة النوم تلك الليلة. "لم أقل حتى كلمة إليه... فماذا عليّ أن أخبره حين يسألني من أنا؟" خطر على بالها مئة ألف ردّ، وظلّت تستدعي مشهد الأمسية مرة بعد مرة.

لم يكن الفجر قد صبغ الأفق الشرقيّ رمادياً بعد. نهضت حميدة

من فِراشها، وكمن يؤخذ من يده، بدت أنها تتبع طريقاً مُقدّراً نحو الحقول. حتى في العتمة وجدت شجرة السنط التي واجهت تحتها رام شاند في الأمسية السالفة. التقطت حميدة حفنة تراب من البقعة التي وقف عليها ومسحت بها جفنَيها في وقار...

بينما كانت راحتاها على عينيها، أخذ شخص يديها بيديه. ففتحت حميدة عينيها. كان رام شاند.

قال "أنتِ پورو. طيلة الليل ظلّ اسمكِ يدور في رأسي. أنتِ پورو، أليس كذلك؟"، سألها، ليتأكّد.

أبى لسان حميدة ثانية أن ينبس بصوت. سحبت يديها من يديه، ثم دارت ناحية كوخها.

ناشدها رام شاند، وهو يتبعها "إن كنتِ پورو، فقوليها مرة. قضيّتُ الليل بطوله في الحقول؛ وأخبرني شيء أنكِ قادمة من جديد. قلبي يخبرني أنكِ پورو".

ردّت "پورو ماتت من زمان". وابتعدت دون أن تستدير لتُعيد النظر كَرّة أخرى.

مرّت الأيام وأُضيفت إليها شهور؛ والشهور إلى أعوام.

كلما تضع حميدة وعاء الحليب الفخّار على المدفأة، وتكوّم تحتها رَوَث البقر الجافّ، تفكّر في الشرارة الصغيرة بلَوح رَوَث البقر التي لم تُطفأ قطّ. في داخلها بمكان عميق شرارة تأبى أن تطفأ؛ بل

على النقيض، كثيراً ما يبدو أنها ستهجم على الآخرين بالنيران. فماذا يثقلها كطنّ من القرميد قد وضِع على صدرها؟ ماذا يقبض حلقها؟ ظلّت عدة أيام تبلع بذور الآجوان[1] مع ماء بايت. حاولت شرب أواني حليب مُشرَبة بماء مثلّج طازج. لكنه لم يُخفض حرارة جسمها. تتساءل إن كانت الأمور بخير مع أمها. وماذا أيضاً يهيجُ بداخلها؟

عاد رشيدة ذات مساء للبيت ووجهه ممتقع؛ بدا مضنىً، كأنه ناهضٌ من فَرشة مرضه. تظاهر أنه لا يبالي في كلامه مع حميدة وجاويد. لاطف الصغير، كما كان يفعل دائماً. لاحظت حميدة وهو يأكل أنه يستصعب بلع خبزه الشاباتي فكان يبلّله بالماء.

حينما رقدا إلى جنب بعضهما بعضاً على فِراشهما، شعر رشيدة بإلحاح السؤال على عقل حميدة. فتحدّث من دون حضّ حميدة "جاء أحد مستأجرينا اليوم من قريتي".

"من شاتو؟"

"آه".

"هل من أخبار؟"

"قال محصولنا حُصد والقمح قد خُزن...".

"ثم ماذا؟"

.

---

1 ajwain: بذور توابل هندية، تشبه الكمّون. م

"أضرم أحدهم النار في المخزون ليلاً. ودُمّر المحصول عن بكرة أبيه، فلم تتبق منه حبّة. قال: انطلقت النيران فأحالت السماء الرمادية حمراء لامعة".

"شيء مدروس؟"

"ذلك ما شكّوا فيه".

"ومن لديه مصلحة لفعل هذا؟"

لم يردّ رشيدة. وخلدت حميدة أيضاً إلى الصمت.

راح الولدان في نوم عميق، لكن النوم لم يزر أياً من الوالدين.

سألت حميدة بعد تردّد كبير "أيّ نفع سيجنيه أحد في حرق ممتلكات آخر؟"، ظلّ رشيدة صامتاً. استدار متململاً من جانب إلى آخر؛ ونهض مرات ليشرب ماءً. قال أخيراً "ضعي الولد على فِراش آخر؛ جفا النوم عينَي وهو راقد جنبي".

وضعت حميدة جاويد على فراش آخر. استمرّ رشيدة يتقلّب متململاً، كما كان. تحدّث ثانيةً: "سمعتُ شائعة غريبة؛ لم أكتشف إن كانت صحيحة أم لا".

"قل لي".

لم يستعجل رشيدة تبليغها. نفد صبر حميدة. فنهضت تجلس بجانب زوجها.

"بُلِّغتُ أن شاباً غريباً جاء إلى القرية. ظلَّ على مبعدة من الناس. شكّ بعض أهالي القرية في أن... أنه أخوكِ".

"أخي؟"

"هذا كلّ ما قيل، طبعاً، عمّن جاء من شاتو اليوم".

المعلومة الأخرى الوحيدة التي أدلى بها رشيدة إليها، أن الرجل سأل فلاّحاً عن بيت أسلافه. شكّ أهالي القرية أنه ابن ساهوكار؛ ولم يكن لديهم المزيد ليخوضوا فيه غير ارتيابهم.

خيّم الصمت مرة أخرى على الزوج وزوجته. شعرت حميدة أنها مشدوهة قليلاً. فهي لم تر أخاها منذ أحد عشر عاماً. كان رجلاً يافعاً. فتساءلت عما يكون عليه شكله. أيمكن أن تتعرّف عليه لو برز فجأة؟ لا بدّ أن فكرة أخته المخطوفة هي ما أعادته. نسيت أمر الحريق. بين رماد خزين القمح المحترق خلَّصت محبتها لأخيها. فهل كان من أضرم النيران في الخزين؟ هل ودّ أن يصفّي حسابه من عائلة رشيدة ويثأر من إهانة أخته؟ كان صغيراً؛ يسري دم حارّ في عروقه.

أدركت حميدة أنها تنتمي إلى من استحال حصاد عامهم إلى رماد. فكيف تطابق نفسها مع واحد هو مرتكب الجريمة! أو ربما ارتكبها شخص آخر وكان أخوها البائس الضحية البريء من الريبة! أخوها في قبضة الشرطة! رقدت حميدة على فراشها تُحدّق في عتمة السماء. في بالها تتوالى الحُجج واحدةً بعد أخرى

كدلاء ساقية فارسية. حين راحت في النوم أخيراً، حلمت بالعالم كلِّه مشتعلاً؛ كلّ شيء من أعشاب الأرض حتى أعلى شجرة بيبول يضطرم بالحريق. رأت شاباً وسيماً جالساً بهدوء جنب النار يدفئ يديه. حين استيقظت أدركت أن المشكلة التي كانت تعالجها على أنها عُسر هضم وتأخذ من أجلها بذور الآجوان والحليب، ليست هي علّة جسدية.

مثل برتقالة مقشّرة تنقسم إلى فصوص كثيرة، انشطر من البنجاب: الهندوس والمسلمون والسيخ، كلٌّ بعيداً عن الآخر. وكما تطفو غيوم التراب على الدروب، بدأت شائعات "الحوادث الصغيرة" تطفو على الأرياف. قيل كان الرجال يُذبحون بالمئات؛ تُحرق صفوف من المنازل عن بكرة أبيها؛ يشقّ الجيران حلوق بعضهم بعضاً. ولم تسلَم حياةُ أحد أو ممتلكاته.

رأت حميدة، بعينيها الاثنتين، رجالاً يجمعون أسلحة صُلبة يسنّون حوافّها. وقد سمعت عن عائلات تخزِّن العديد من البلطات والفؤوس. وصرّح كلّ امرئ منهم "سنتحرّر؛ ستكون لنا حكومتنا الخاصة". "لن ندع أثراً من دم هندوسيّ يبقى في بلادنا"، قالوها علناً في الأسواق.

سألت حميدة نفسها "أيمكن لهذا كلّه أن يكون حقيقة؟ أين تذهب هذه الملايين من الناس؟"، منحت نفسها أجوبة مطمئنة. "هي هستيريا جماعية. عاصفة ستهمد بعد يوم أو يومين".

لكن الناس ظلّت تنطق شراً؛ لم تكن حميدة تعقل أياً مما يقولون. سمعت حكايات متوحشة عما تمرّ به المدن. فاضت الشوارع بالدم وقيل تراكمت الجثث البشرية، خاصة ولا أحد يدفنها أو يقوم بحرقها؛ فاح نَتَنٌ من اللحم المتعفّن ينشُر الطاعون في الهواء. أُقيمَت المتاريس، في بعض المدن، لتقسيم مناطق المسلمين عن الهندوس. ووصلت أخبار عن جحافل المسلمين القادمة عبر الحدود. مات كثير في الهند؛ وسقط كثير على جوانب الطرق؛ واستسلم كثير لجراحهم بعد انقضاء رحلتهم.

احترقت أُذنَا حميدة من الهياج لدى سماعها عن خطف بنات الهندوس من قِبل المسلمين وبنات المسلمين من قِبل الهندوس. أُكره بعضهن على الزواج، وقُتل بعضهن الآخر، وجُرّدت أُخريات ليسرن عاريات في الشوارع.

هكذا مرّ 15 أغسطس من عام 1947.

في قرية حميدة، يضربون الطبول من الفرح، ويعلّقون رايات خضراء مع هلال ونجمة. حين يجتمع المسلمون في المسجد كلّ يوم، تمتقع أوجه الهندوس كأنها كُركُم مبسوط.

بدأ الهندوس في القرية المجاورة يفرّون. خلّفوا أبقارهم مربوطة في وثاقها؛ أما جواميسهم فكان خوارها يدعو إلى الشفقة. سكنَت بيوتهم وحقولهم الأشباحُ. فرّوا ليلاً، غير أن بعضهم اكتشفوا فقُتلوا قبل أن يبتعدوا؛ وعُثر على آخرين قتلى على بُعد أميال.

ثم بدأ الأمر في قريتها هي، شاتو. انتقل الهندوس إلى بيت واحد، طلباً للأمان. كانوا يدّخرون الحبوب والمؤن في الفناء، ولم يغادره أي رجل أو امرأة منهم. كأنهم حيوانات في قفص. كان المسلمون فحسب يهيمون أحراراً. فاقتحموا بيوت الهندوس واحتلّوها.

قرّروا ذات صباح أن ينقضّوا على المنزل الذي يلتمس الهندوس فيه مأمناً. وقد صبّوا زيت الكيروسين على النوافذ والأبواب وألقوا فيها بحُزم أعواد مشتعلة. تصاعد اللهب في السماء. بدأ المُحتَجزون من الرجال والنساء بالعويل. عندئذ فقط اندفع جيش هنديّ مُسلّح إلى القرية. جاء الجنود في آخر لحظة، فأطفأوا النار وأنقذوا النُزلاء. حمّلوا الحشد الصارخ المصعوق في شاحناتهم. احترق ثلاثة بشدّة؛ ونزّ الشحم منهم كالشمع؛ وتقشّر اللحم عن عظامهم مثل الرقوق؛ ومرافقهم ورُكبهم تنتأ كجذوع مجدوعة بيضاء. في الوقت الذي كان فيه الآخرون قد جلسوا، مات هؤلاء الثلاثة. لم يبق وقت لإحراقهم. تجاهل الجنود من احتجّ من أقاربهم، ولم يكن غير أن يتخلّصوا من أجسامهم بالزقاق، ثم تحركوا مبتعدين.

بدت القرية مهجورة. لم يتخلّف من غير المسلمين إلا أولئك الثلاثة الذين تفحّمت جُثثهم في الشارع. وبعد يومين، راحت الغربان والكلاب الوحشية تنهش لحمهم. وظلّت هياكلهم العظمية أمام المنزل المحترق.

لم يكن ذلك كلّ شيء. فقد رأت حميدة ذات يوم فرقة تتألّف من دستة أو أكثر من العصابات[1] يدفعون بنتاً صغيرة أمامهم. كانت عارية. يقرعون الطبول ويرقصون حول البنت العارية. لم تكتشف حميدة من أين جاؤوا وإلى أين هم ذاهبون.

خطيئة أن تكون حياً في عالم مليء بالشرّ، فكّرت حميدة. جريمة أن تولد بنتاً.

اكتشفت حميدة ذلك المساء بنتاً صغيرة تختفي بحقلهم المزروع بالقصب.

بعد الإظلام، جلبت حميدة البنت إلى البيت. كانت من معسكر للاجئين في القرية المجاورة، وتنتظر دورها، مثل الآخرين، للنزوح إلى الهند. كان يحرس المعسكر جنود باكستانيون. بعد الغروب انسلّ أفراد العصابات داخلين، اختاروا النساء اللاتي أعجبتهم وأخذوهن لقضاء الليلة، ثم أُعدن للمعسكر صباحاً. وأُجبرت البنت على قضاء الليالي التسع السابقة مع رجال مختلفين. وقد فرّت من قبضات غاصبيها، وضيّعت طريقها، وحين شقشق نور الصبح تخفّت في حقل القصب حيث وجدتها حميدة.

سمعت حميدة الحكاية مفعمة بالغضب والعار. هل تنتج الأرض المنقوعة بالدم البشريّ قمحاً ذهبياً؟ هل تظلّ الذرة شذيّة لو تغذّت جذورها بالجُثث النتنة؟ هل تحمل النساء اللاتي تلوّث شرفهن أولاداً للغاصبين؟

---

1 goondas: يشبهون فتوات المدن العربية القديمة. م

أخفت حميدة البنت بإحدى غرف المنزل الخلفية، حيث يخزنون قمحهم وعلف ماشيتهم. جاء غرباء في الصباح التالي إلى شاتو بحثاً عن البنت. وقد اختلسوا النظر في أفنية الناس، لكن لم يعثروا لها على أثر.

مرّ في المساء التالي موكب من اللاجئين عبر شاتو. يسير الرجال على أقدامهم، والنساء والأطفال في عربات تُسيّرها ثيران، مع أمتعتهم. وسارت قوة محدودة من الشرطة في المقدّمة والخلفية. بدا اللاجئون مجلّلين بالخزي؛ تستقرّ المحنة على وجوههم كطبقة غبار. حين أظلمت الدنيا، وقف الموكب لقضاء الليلة خارج شاتو.

جاء الموكب من جهة راتوفال، حيث يعيش رام شاند، الذي خُطبت إليه حميدة ذات يوم. أيقنت، تقريباً، أن رام شاند بين أفراده. فهل لها أن تراه، ولو مرة... مرة أخيرة؟

قايض اللاجئون حِلِيّهم وجواهرهم لشراء الطعام والحبوب. خرج بعض الناس من شاتو لتقييم الأسعار، وعلى مرأى من الشرطة، باعوا ذرتهم وشعيرهم وما يملكون من أوزان ضئيلة من الذهب والفضة.

لم تلتمس حميدة عذراً للذهاب إلى المعسكر. وقد عاينت رام شاند وسط الجمع. سألته عَرَضاً "هل تحتاج إلى مؤن أو طعام؟"

"نعم"، ردّ رام شاند. ولم يُبد أيّ علامة على التعرّف.

"جهّز فلوسك. سأحضر الأشياء ليلاً". أطلقت نظرة خاطفة ناحية الشرطة، ودارت مبتعدة.

أخبرت حميدة زوجها أنها تنوي جلب البنت التي تستخفي في منزلهم إلى معسكر اللاجئين. منحتها قِدراً مليئاً بالطحين لتحمله على رأسها، وأخذت صفيحة الزبد بنفسها وعادت للمعسكر.

كان اللاجئون مشرّدين طيلة اليوم ويرقدون ممدّدين على الأرض. وعلى الرغم من أنَّ سحابة الموت حامت فوقهم كروح حقود من خفّاش ماصّ الدماء، إلا أنهم كانوا ينامون كمن لا يعنيهم شيء في هذا العالم.

انسلّت المرأتان أمام الخَفَر في أثناء القيام بدوريتهم، وألقتا صفيحة الزبد أرضاً أمام رام شاند.

سأل رام شاند "أنتِ پورو، هه؟"

فردّت حميدة "ألا تزال تتمنّى أن تعرف؟"، ونبرتها محمّلة باتّهام مضاد؛ كانت أول وآخر شكوى تعرضها عليه. فخفض رام شاند رأسه في خِزي.

سألته في قلق "عندكَ أخبار عن أمي وأبي؟"

"لم يرجعا بعد الزفاف. هما...".

"زفاف؟ زفاف من؟"، قاطعته حميدة.

"بعد أن اختفيتِ، جاؤوا بأختكِ الصغرى لتزويجي بها. كما زوّجوا أخاكِ بأختي في الوقت نفسه. رحل والداكِ إلى تايلاند ولم يرجعا".

"أختي... قطعاً هنا معكَ!"، هذه أول مرة تسمع فيها بزواج أختها من رام شاند.

"لا، جاء أخوكِ من أيام ليترك زوجته مع والدَيّ. وأخذ أختكِ لتعود معه".

"هل أختكَ، زوجة أخي، معك في المعسكر؟"

"لا". تلعثم صوت رام شاند؛ وملأ الدمع عينيه. "كانت معنا حين تركنا بيتنا. أحمل أمي العجوز على ظهري. وهي تتبعنا. لكنها ليست معنا الآن". ثم حشا رام شاند طرف عمامته في فمه ليخنق نشيجه. "أمي تدقّ صدرها وتعول منذئذٍ".

أحسّت حميدة بأحشائها تتقلّب داخلها.

واصل رام شاند "قد تستطيعين أن تجديها. فلا نعرف إن كانت حية أم ميتة".

"اسمها لاجو، أليس كذلك؟"، سمعت حميدة اسم الفتاة زمان خطبتها.

"نعم، موشوم على ذراعها".

واصل الاثنان الكلام، في حين كان اللاجئون نائمين والخَفَر يلفّون في سير وئيد. ثم قدّمت حميدة الفتاة التي جلبتها معها. "أريد أن أترك هذه الفتاة في كفالتكَ. فخذها في موكبكَ. حين تصل الهند حاول أن تكتشف موضع والديها". أخذت حميدة يد الفتاة ووضعتها في يد رام شاند. تطلّع رام شاند في الفتاة، وأومأ. حادت الفتاة عن مكانها وجلست خلفه. بعد دقائق مدّدت نفسها على الأرض، وراحت فوراً في نوم عميق.

قالت حميدة وهي تتأوّه "ليتني رأيتُ أخي هنا آخر مرة، كنتُ سعدت".

"تلك المرة... حين أُضرمت بحقولكم في شاتو النار! أتذكرين؟"

"النار؟ آه، أذكُر. هل صحيح أنه أخي الذي فعلها؟"، وتذكّرت حميدة رشيدة وهو يخبرها عن الشائعة.

"نعم. جاء يُعيدكِ - بالقوة عند الضرورة. لكنه لم يكتشف أين سُكناكِ. فهاج كثيراً حتى أضرم النار في محصول رشيدة".

شعرتِ حميدة بحسّ غريب من الكرامة في أخيها. فقد نشأ ليصبح رجلاً ثم امتلأ رغبة في الثأر للإهانة التي لحقت بأخته؛ لم ينس أخته پورو. كما أدركت حميدة أن أخاها فقد الآن زوجته؛ واضح أن أحدهم خطفها. لم تكن زوجة أخيها فحسب بل أخت رام شاند فعلياً. وهي في خطر مُحدِق.

"ابعث لي بطاقة بالبريد حين تصل الهند واكتب لي عنوانكَ. وإذا اكتشفتُ شيئاً عن لاجو فسأُخبركَ".

ظلاّ يتكلّمان طيلة الليل. بدأ الأفق الغربيّ يستحيل رمادياً. شرع الخَفَر في إيقاظ اللاجئين ليتحرّكوا بهم. وقفَت حميدة. ضمّت راحتَي يديها، دون أن تنبس ببنت شفة. وهي عائدة، سدّ واحد من قوة الشرطة خطّ عودتها بعصاه. "إلى أين؟"

"جئتُ أبيع حبوباً".

"كم حصّلتِ؟ أريني الفلوس".

وضعت حميدة يدها داخل شالها، نضّت عنها أسورتها الفضية وقدّمتها للشرطيّ. أرضته فتركها تمضي. لم يمرّ ببالها أن نساء الهندوس لا يلبسن حِليّاً فضيّة إلا نادراً.

قضت حميدة عدّة ليال تحدّق في عوارض السقف. تتساءل في أفكارها عن بلايا النساء - بنات الناس وأخواتهم وزوجاتهم - مَن يمسكهن الغرباء غصباً تحت أسقف كسقفها. من بين كثيرات، تعنيها واحدة هي لاجو، أخت رام شاند وزوجة أخيها.

تزوّجت لاجو من قرابة عام. ربما لها طفل. كيف حال الطفل؟ يا للمحنة التي سقطت على أمه الهزيلة! ليت الفتاة التي لقيتُها في حقل القصب كانت لاجو!

حميدة أخبرت رشيدة عمّا فعلته وسقطت عند قدميه تطلب

غفرانه. وناشدته "لم أطلب منكَ خدمة من قبل. حاول أن تعثُر على لاجو؛ أنت تعرف جيداً كيف تقوم بذلك".

أخذ رشيدة يديها بين يديه؛ وكانت اللمحة كافية.

لدى رشيدة إحساس قويّ أن لاجو لا تزال في راتوفال. لقد تركت بيتها مع أخيها لكنها لم تستطع اللحاق بالموكب. من الواضح أن شخصاً بالقرية نفسها قبض عليها. قام رشيدة بزيارتين إلى راتوفال. اشترى المؤن من محالّ مختلفة من أجل الحصول على المعلومات. كلّ ما نُميَ إليه أن عصابة خطفت فتيات من موكب عابر. ثم تعمّقت قناعته أن لاجو واحدة من بين هذه الفتيات.

لا يعرف رشيدة أحداً في راتوفال للنزول عنده حتى يبحث في القرية. تذكّر المقدّس الذي يعيش جنب النبع وعالج أمّ رحيمة. أظهرت عينا حميدة أثر الليالي المؤرّقة؛ فكان لديها عذر كاف أن تذهب للنبع بعد صلاتها صبحاً لتغسل عينيها. ووضع رشيدة وزوجته خطّة. أخذا ولديهما معهما إلى راتوفال. على حميدة أن تهب قربانها إلى المقدّس. وقد أخذت صُرّة القماش[1] على رأسها كي تبيعها في القرية.

في أثناء النهار، عندما تعمل جماعة الرجال في الحقول وعندما تنشغل النساء بمهامهنّ اليومية، تدخل حميدة بجرأة أفنيتهن وتلقي بصُرّتها على الأرض. كانت تطلب سعراً كبيراً لبضاعتها ونادراً ما تساوم. على أيّ حال، فمعظم أهل القرية لديهم مخزون من

1 khes: قماش شعبيّ قطني منسوج. م

السجاجيد والقماش الذي نسجوه بأنفسهم؛ كما كوّم أغلبهم حِملاً من الغنائم المنهوبة من الهندوس المُبعَدين. ومع ذلك لم يُثن حميدةَ شيء، فهي تروح من منزل لآخر. تختلس النظر في الغرف. وتشغَل النساء بالحوار وهي تلقي نكات عما هربت كلٌّ منها به. تسألهنّ عن البيوت التي نزح منها الهندوس، وهكذا تستطيع أن تُحدّد مكان رام شاند. تحسّ هي وزوجها أن الرجل الذي احتلّ منزل رام شاند استولى أيضاً على أخته، لاجو. مرّت حميدة على المنزل أكثر من مرة، لكن في كلّ مرة تصرفُها امرأة عجوز من عند الباب، قائلةً بحزم إنها لا تريد ابتياع شيء.

ذات يوم شقّت حميدة طريقها عنوةً إلى فناء المرأة العجوز. "آما، ليس عليكِ أن تشتري شيئاً؛ انظري فقط لما معي. لن أُكلّفكِ غير النظر إلى حاجياتي". ثم رمت صُرّتها على الأرض، فكّت العقدة وفرشَت بضاعتها. قالت "يكرمكِ الله! هاتي لي شربة ماء لأروي عطشي. فقد خرجت منذ الصباح وجفَّ ريقي!"

نصحتها المرأة العجوز "ما رأيكِ في قدح من اللبن الرايب بدلاً من الماء. لكن إن أردتِ بيع قماشكِ أو مفارشكِ فعليك بالذهاب إلى المدينة، حيث لا يغزل الناس الصوف ولا ينفّشونه. لا تنقُص القريةَ هذه الأشياءُ". ثم دارت حولها وهي تصرخ "أنت امرأة طيبة! خذي وعاء للبن الرايب!"

طلّت فتاة شابة من داخل غرفة. بدت هزيلة تسير كالمغشيّ عليها.

أهي لاجو؟ "لا تبدو الفتاة على ما يرام؟" استفسرت حميدة في حنان، وهي تأخذ وعاء اللبن الرايب من بين يديها.

ردّت المرأة العجوز بلا مبالاة "هي بخير... عكرة المزاج بعض الشيء".

سألتها حميدة "عندكِ حبّة ملح صخريّ نقلّبه في اللبن الرايب؟"، بعد أن أخذت رشفة.

تناولت المرأة الشابة حبّة ملح. وبينما تأخذها من يد الفتاة، ضغطت حميدة على أحد أصابعها. أجفلت الفتاة لكنها لم تبتسم ولا نبست بكلمة. تبدو شاحبة، كعود ممصوص من القصب. اطمأنّت حميدة أنها لو لم تكن لاجو، فهي قطعاً مخطوفة.

شربت حميدة اللبن الرايب. جاءت الفتاة لتأخذ الوعاء الفارغ. فأسرعت حميدة تمسك ذراع الفتاة، ثم قالت: "دعيني أجسّ نبضكِ؛ تبدين كمن في حالة يرقان كالكُركُم"، ودفعت كُمّها لأعلى ذراعها اليسرى. فرأت اسم "لاجو" موسوماً عليه باللغة الديفاناجرية[1].

قالت المرأة العجوز في صوت ثقيل "هل لكِ أن تعطيها رقية أو من هذا القبيل - شيئاً يجعلها تحسّ بالراحة أكثر في البيت هنا؟ فهي تأبى أن تعيش مع ولدي عيشة الأزواج".

ردّت حميدة تواً "عندي فعلاً ما تحتاجينه من الرُقَى. ستجعلها تتفتّح كعرانيس الذرة الذهبية".

---

1 Devanagari: لغة هندية نيبالية، بألفباء معروفة. م

فناشدتها العجوز "سأعطيكِ ما تريدين. فقط أحضريها لي"، وهي تمسك حرف قميص حميدة.

"سأجلبها غداً، بمشيئة الله..."، وأعادت حميدة ربط صُرّتها. وظلّت الفتاة تُحدّق كأنها صمّاء بكماء.

بلّغت حميدة زوجها عمّا دار. قالت وهي تبتسم "أترك لكَ الباقي؛ أنت تعرف كيف تحسن التصرُّف. فارفعها كما رفعتني إلى سرجكَ".

سأل رشيدة "لن يصعُب أن أبتعد بها من هنا، لكن كيف نجعلها تلتحق بعائلتها؟"، ثم أخبرها عن بلاغ الحكومة الذي يأمر الناس بتسليم كلّ مخطوفة، حتى تُستبدَل على وجه التماثل بأخرى خطفها الهنود. ونُصح الآباء بتسلّم بناتهم المخطوفات.

استحوذ على عقل حميدة الشعور بالامتعاض. حين حدث معها هذا، كان الدين هو العقبة الكؤود؛ فلم يكن والداها ولا أنسباؤها الجدد عازمين على تقبّلها. أما الآن، فصار الدين نفسه ليّن العريكة! نحّت حميدة مشاعرها الشخصية جانباً، وبدأت تفكّر في مستقبل لاجو. جفاها النوم فترة طويلة. حاولت أن تحسب وقت خروج المرأة العجوز إلى الحقول جالبة خبز الشاباتي لابنها.

في الصباح التالي، وضعت حفنة رماد بقطعة ورق وربطتها في خِرقة. ثم أخذت صُرّة قماشها وتابعت طريقها نحو منزل لاجو.

صلّت حميدة إلى كلّ من تعرفه من قدّيسين. كما كرّرت أسماء أرباب الهندوس وربّاتهم. اعتادت غالباً أن تقول إن الله ربيبها أو أنها ربيبة ايشوارا[1]، فلم يمنح هذا ولا ذاك عزاءً لأحزانها. لكنها اليوم في منتهى الرعب لدرجة تخشى معها أن تسخر من هذه الأشياء. فتضرّعت متحمّسةً إلى الآلهة جميعاً كي تُعينها في أداء مَهَمّتها وتفتح لها الباب.

كانت لاجو ترقد على فِراش بالفناء. سألتها حميدة فورَ أن دخلت "أين آما؟"

ردّت لاجو وهي تنهض واقفة "راحت للحقول"، نمّ وجهها عن اهتمام ببائعة القماش.

ضمت حميدة الفتاة لحِضنها. صرخت "أنت لاجو... زوجة أخي...!". وخرجت من داخل لاجو صرخة لوعة. كانت حادّة ستثقُب الجدران وتُسمع عبر الفناء. لكنها لم تدع صوتاً يندّ عنها.

سألت "أنتِ پورو؟"، وهي تُحرّر نفسها. فلم تقابل پورو من قبل، لكنها استطاعت أن ترى الشبه العائليّ القريب بين پورو وزوجها. خفضت لاجو عينيها، وسقطت على قدمَي حميدة. لم يكن على حميدة أن تطلب أسئلة؛ فقد كانت تحضن لاجو إلى صدرها ببساطة مرة تلو مرة.

---

1 Isvara: ايشوارا - يا إلهي، بالهندوسية. م

سألت حميدة "لاجو، اسمعي ما سأقوله قبل ظهور أحد. في أيّ وقت تعود المرأة العجوز؟"

بكت لاجو "لا أعرف؛ لا أعرف شيئاً! خذيني بعيداً من هنا!"

"أتظنين أنني أتيت هنا لشيء غير اصطحابك معي؟"

ناحت لاجو "إذن فخذيني بعيداً!"

"تحكّمي في نفسك، يا فتاة! أين يمكن أن نهرب؟"، ثم مسحت دموع لاجو بشالها. سألت "هل يُسمح لكِ بالخروج؟"

"لا".

"تخرجين إلى الحقول في الصباح طبعاً؟"

"المرأة العجوز معي دائماً".

توقّفت حميدة لفترة ثمَّ واصلت حديثها: "ستكون الليلة بلا قمر. إن استطعت الوصول إلى النبع خارج القرية، فستجدين زوجي رشيدة ينتظرك مع فرسه".

ارتجفت لاجو خوفاً. فهي لا تخرج وحدها في الظلام؛ كما أنها لا تعرف رشيدة. ولو قُبض عليها، لكانت تلك النهاية. "كيف أخرج من المنزل؟"

"انتهزي فرصة، حين ينام الجميع".

"هو يشرب. أستطيع أن أعطيه قطرة أو اثنتين أكثر الليلة. لكن المرأة العجوز تنام في الفناء".

"ألا تتناول المرأة العجوز الأفيون أو شيئاً مثل ذلك يساعدها في النوم؟"

"لم ألاحظ".

"لو استطعت فقط الوصول للنبع...".

"لكن... لكني حتى لا أعرفه. لو أمكن أن تكوني هناك...".

"سيأخذك بعيداً إلى برّ الأمان في أثناء الليل. وإن كان لي أن آتي معه، فلن يستطيع أحد منا الهرب".

"لم أره قطّ".

"عليكِ أن تثقي بي. سأجعله يلبس هذا الخاتم في إصبعه". وأظهرت حميدة الخاتم الذي تلبسه إلى لاجو. ثم سكتت كلتاهما إثر سماع وقع أقدام.

"قد تكون هي!"

جلست حميدة على الأرض، تعبث بيديها في الخِرقة التي تضمّ الرماد. مرَّت الخطوات بجانب الباب في طريقها إلى الزقاق. فاستأنفت الفتاتان حوارهما.

قالت لاجو "أخشى أن يمسك بي أحدٌ على الطريق".

"المكتوب من قِسمتك سترينه. لكن لن تكوني في حال أسوأ من هذا. أظنّ أنه من الأفضل أن أتحرّك الآن. فأن لا تراني المرأة العجوز اليوم، أحسن...".

"لأجل خاطر ربنا خذيني معكِ!"، بكت لاجو وهي تتشبّث بحميدة، كطفل مع أمه. ظلّت حميدة تنظر في توتّر إلى الباب وهي تعانق لاجو "الليلة... نصف الليل...". حلّت حميدة نفسها، جمّعت أغراضها ثم رحلت.

مدّدت لاجو نفسها بالفِراش المشدود الخشن. كانت تحسّ بحياة جديدة تنبض في أوصالها. سمعت الجدران تردّد صدى الكلمات "الليلة... نصف الليل...". وكانت تُحدّق في أرضية القرميد بالفناء. كان هذا بيتي، ولدتُ هنا، وتزوّجتُ هنا، وهنا أُخذت مِحفّة عُرسي. ثم عدتُ إلى بيتي هنا. غير أنَّ أقاربي كلّهم قد رحلوا مخلفين جثّتي وراءهم تتعفّن. صرتُ غريبة في بيتي. البيت الذي وهبني الميلاد قد صار هو الآن كفني... لكن الليلة، نصف الليل، سأستردّ حريتي!"

حلّت المرأة العجوز سُقّاطة الباب الخارجيّ. سألت مباشرة، بمجرد أن دخلت "ألم تأت بائعة القماش؟ فقد وعدت بالمجيء اليوم".

"لا"، ردّت لاجو بغير مبالاة.

تأوّهت المرأة العجوز وارتمت بتثاقل على الفِراش. "كوني

فتاة طيبة وحطّي حفنة عدس وحمّص في الغلاّية؛ فأنا في غاية التعب".

نهضت لاجو في خفّة؛ هبّت لأداء المَهمّة كمن يؤدّي عملاً أخيراً. نظّفت العدس والرزّ ووضعتهما في إناء صغير. حطّت بضعة أغصان بالموقد، ثم أشعلت النار. المعتاد أن تعجن المرأة العجوز الطحين بنفسها؛ لكن ذلك المساء وضعت لاجو الدقيق بالمنخل وعجنت وخبزت الشاباتي.

مرّ اليوم طويلاً كأنه سنة. استطال أخيراً ظلّ الجدار عبر الفناء، ودارت الظهيرة نحو المساء. عاد ابن المرأة العجوز ولم تقلب لاجو سحنتها إليه كما كانت تفعل سابقاً.

ثلاث مرات تقع المغرفة التي تقلّب بها لاجو العدس والرزّ من يدها؛ وقد فَلَت مرقاق العجين مرتين من قبضتها؛ كما ارتطم وعاء الحساء النحاس في الأرض. صرخت المرأة العجوز بتهجّم "ما لكِ؟"

وأضاف الابن بفظاظة "ألا ترين ما تفعلين، أم أن بعينيك أزرارا؟"

لم يزعج مزاجُ المرأة العجوز لاجو، وصمّت أُذنيها عن توبيخ الرجل. نشطت في شجاعة لم تألفها قبلاً. عقلها مثبّت على اللحظة وهي تدنو حثيثاً. ستعتم الدنيا قريباً؛ وكلّ امرئ سيروح في النوم؛ وتنسلّ خارجة من المنزل بسلاسة كما ينسلّ رسغ من أسورة مزيّتة جيداً.

تكره لاجو ملمس زجاجة الخمر وتدمدم دائماً حين يأمرها الرجل أن تناوله إياها. لكنها جلبتها ذلك المساء دون انتظار أن يَطلب منها. واختارت نوعية البراندي المفضّل لديه، المقطّر مرتين، بنكهة الهِيل، التي يحتفظ بها بعيداً عن الزجاجات الأخرى.

أصاب المرأة العجوز وابنها الذهولُ ممزوجاً بالفرح؛ فقد أحضرت الخمر بنفسها وكان العدس والرزّ لذيذَين. ربما أحرزت تقدّماً أخيراً؛ وقد تشاركه الفِراش هذه الليلة.

بدأت المرأة العجوز تتداعى للنوم.

"يبرّد الجو في الفناء؛ فوضعتُ لكِ فِراشك بالداخل. اذهبي إلى النوم إن كنتِ تعبانة". تحدّثت لاجو كسيّدة المنزل. فُتحت عينا المرأة العجوز على وسعهما لحظة. يبدو أن الفتاة تريد أن تُترك وحدها مع ابنها! فمضت داخلة لتنام.

تقدّم الليل. سَكِرَ الرجل سريعاً. مسك ذراع لاجو وسحبها إلى فِراشه. ولم تمانع لاجو.

هكذا مرّ الربع الأول من الليل. وقد استنفد الجنس والخمر جهدهما. راح الرجل في نوم عميق وبدأ يغطّ بالتذاذ. الحيطان فحسب، التي ترى الكثير، راقبت سيّدة المنزل وهي تنسلّ عبر العتبة في سكينة نصف الليل.

لم تكد لاجو تبتعد بضع خطوات حتى أحسّت بمن يتبعها؛

تصوّرت يدين مرئيتين تمسكانها من كَتفيها وتخنقانها. حتى في البرد، الذي منحها القُشعريرة، بدأت تعرق بغزارة.

مرّت بجانب حائط بيتها السميك نحو الظلمة، تركت الحارة. تجنّبت الحارة وأخذت الدرب الملتوي الذي كان يدور وراء أكواخ الطين.

خرجت لاجو من القرية. بينها وبين الحائط منطقة مفتوحة. انتابتها رجفة من قدميها العاريتين حتى أعلى عمودها الفقريّ إلى جبينها فانتشرت خلال جسمها. عادت تُحدّق فرأت أكواخ الطين تنبسط كمقابر في فناء جبّانة. لم تسمع صرخة، ولا رأت شبحاً يبرز، لكن وصل سمعها تنفّسها مثل كِير حدّاد. لا وقت لديها تضيّعه. رفعت بصرها قليلاً نحو النجوم الوامضة وهي تخطو في فراغ العتمة. واصلت السير بعزم ضارٍ ثم نظرت للوراء فقط بعد عبورها إلى الجانب الآخر. لم يتبعها أحد؛ وراءها فراغ تضيئه النجوم. استدارت إلى النبع. لم يكن هناك أحد. فسارت حول الحاجز. تُحلّل في عقلها ماذا لو لم يأت إليها رشيدة، فقد تقع برأسها المسألة.

ظهر شبح تستره ملاءة رمادية من بين أكمة أشجار "أختي، أنتِ لاجو؟" وكشف الرجل وجهه وهو يتكلّم.

"أخي، أعطني أمارة". كانت لاجو تنظر إلى رشيدة بملء عينيها. بدا رجلاً لطيفاً. فأحسّت بالطمأنينة. رفع رشيدة الخاتم لتراه لاجو.

"سآخذكِ إلى مقصدكِ ثم أعود إلى حميدة غداً أو بعد غد؛ فالصغيران معها". عاد بين الشجر، يفكّ قياد فرسه.

تمتم رشيدة "يا ألله!"، وهو يساعد لاجو في امتطاء صهوة فرسه. اعتلى السرج وضرب كَعْبيه في خاصرتَي الحيوان، فانطلق في خَبَب سريع. لم يستطع رشيدة منع نفسه من تذكّر الوقت الذي التقط فيه پورو من المدقّ المترب. لم يعد شاباً كما كان، لكن لا يزال بذراعيه قوة. استرجع أنه حين خطف پورو، كان ضميره ثقيلاً كالصخر، وقد صار أثقل وأثقل. تُثقل تلك الليلة عقله من زمن طويل، بينما يُعجّل الفرس في دروب الريف المضاءة بالنجوم، بدا كأن ثُقله سينقشع، فأحسّ بنفسه خفيفاً كزهرة تتسارع في النسيم الشَذِيّ.

ذاع في القرية، قبل الفجر، خبر اختفاء لاجو؛ فلم تنته النساء من خضّ اللبن الرائب حتى سمعن بخطف الفتاة. لم يبق أحد من الهندوس في الحيّ المجاور؛ لا يستطيع هندوسيّ أن يهرّبها. هذا فقط من صنيع مسلم. سأل كلٌّ منهم الآخر في ذهول، لكن لماذا يفعل واحد مسلم هذا.

أشرقت الشمس. رائحة العدس المطبوخ فوق نيران رَوَث البقر، مختلطة بدخان بَعْر الإبل الجافّ المحترق في الأفران الطينية، تنتشر من كلّ منزل وتغلّف القرية كلّها.

كان باب بيت لاجو مفتوحاً على مصراعيه، مثل فَكّ مَسخ مخيف. سارت حميدة إلى الداخل. كان الفناء متّسخاً بقُدور لم

تُغسل، عليها كومات من الذباب. واضح أنه لم يُطبخ طعام في المنزل ذلك الصباح.

"ألم تري الحقيرة المنحوسة بأيّ مكان؟" وتغضّن وجه المرأة العجوز كرِقٍّ مجعّد.

سألت حميدة "من، يا آما؟"، وهي ترمي صرّة قماشها على الأرض.

"تلك الساحرة. عاقبها الله!"، وطفح وجه المرأة العجوز بالكُره.

هتفت حميدة "هاي، هاي!"، وهي تصفّق بيديها. "أين زوجة ابنك؟"

"تلاشت! فلتحترق في نار جهنّم!"

"هاي، هاي، مع من؟ جلبتُ لها رُقىً".

"ارميها بالموقد. فقد خطفها جنّيّ أو شبح".

"لا تأكلي في نفسك، يا آما. من يخطفها بالقرية؟ لا بدّ أنها في مكان في الحقول".

"كفي! كيف تبقى في الحقول لوقت متأخّر؟ الوقت يُقارب الظهر".

"لكن يا آما، هي ليست لقمة خبز قد يبلعها غراب!"

"ذلك ما أقوله. قد تكون نطّت في بئر، أو أغرقت نفسها في بركة. فلم أثق بها من أول يوم. لكن الولد تعلّق بها. أعطاها الكثير من الحرية. قال إنه ليس لها أحد لتفرّ إليه".

"آما، أين والداها؟"

"اللعنة على والديها! حذّرته من أول يوم أنك لا تستطيع بناء بيت جميل بحجارة مسروقة. لكن من يستمع إلى امرأة عجوز! وقع في حب الفتاة. وما جدوى كتم سرّ عنكِ يعرفه كلّ امرئ في القرية . فالبنت هندوسية. حينما بدأ الهندوس يفرّون من القرية، خطفها ابني. والله عليّ شهيد، قلتُ يومها علينا أن نحترم بنات الناس وأخواتهم. ذلك بالضبط ما قلته له. يا ابني العزيز، ابني الغالي، لقد جلبت حِملاً من الخطيئة للمنزل. كيف نفكّ أسر ضمائرنا من هذه الجريمة؟"

"أفهم الآن لماذا كانت تبدو مرتعبة! لكنِ أين يمكنها أن تهرب؟ كما يقولون، أيّ مفرّ للغِربان من الحدآت. أُحسّ أنها سقطت في بئر أو مصرف. أو قتلت نفسها أو حان أَجلُها".

"على الأقلّ محونا وصمة عارها. لكن ذلك الولد الذي عندي يلومني من ساعتها. يقول هل عميتِ فلم تريها وهي تذهب؟ فلم تكن رِجل عصفور صغير قد يضعها أحد في جيبه ويُسرع مبتعداً!"

"آما، هل خرجَت من قبل وحدها؟"

"اعتدتُ أول مجيئها قفل الباب من الخارج حينما أذهب

لأعطي ابني طعامه. فقال الولد وأين تروح المسكينة؟ لو وضعنا حرساً عليها، أربعاً وعشرين ساعة، فلن تجد مثل بيتنا. فكُنا نتركها وحدها ساعة أو ساعتين ظُهراً. حتى أمس، حين عدتُ من الحقل، كانت مرتاحة. لا أعرف متى جاءت هذه المصيبة وخطفتها مبتعدةً".

"لديكم آبار موحلة؟ فهي ليست ممّن يهرب مع آخر. تطلّعت في بيوت الناس؟"

"منذ الصباح تدفّق أهل القرية عندي. قلَبوا كلّ بوصة حولهم في الأرض. وابني الآن، آلله ديتا[1]، وبعض رفاقه يفتّشون في الآبار. لو عثروا على جثّتها، لكَفَّ الولد عن القلق على مصيرها. أطال اللّه عمر ابني! فهناك الكثير من النساء...".

كانت حميدة تلبس وجهاً قاتماً وتتأوّه كلّما تطلّب الأمر.

جاء جمع من الرجال في الفناء. قالوا وهم يفترشون الفُرُش "فتّشنا الآبار كلّها دون أن نعثر على أثر للبنت".

"لتلبسها الخطايا جميعاً! لماذا تبدين متوعّكة؟"، أدركت حميدة لماذا تلبّس وجه لاجو الحزن. فأيّ امرئ يقع بين مخالب حدأة كريهة كهذه سينسلّ بدنه إلى هيكل عصفور.

قالت حميدة "آما، ليهبك اللّه سكينة الروح! عليّ أن أذهب الآن"، ووضعت صُرّتها على رأسها.

---

1 Allah Ditta: اسم رجل، معناه "اللّه أعطى" أو "عطية اللّه". م

سألها آللّه ديتا بفظاظة "وأنتِ من؟"، صُرّة القماش جعلته يتشكّك.

ردّت المرأة العجوز "ومن تكون غير بائعة القماش؟"

قال آللّه ديتا، بنبرة يملؤها الشكّ "لم أركِ بالقرية من قبل".

قالت المرأة العجوز بحدّة "تلفّ علينا طيلة الأيام الكثيرة الماضية".

"من أين أنتِ؟"، واصل آللّه ديتا بالنبرة العدوانية ذاتها.

"عندي ولدان؛ أمضي من قرية لأخرى وأجري على قوت عيشي". تمنّت أن ينبت لها جناحان، فتطير بعيداً.

"أنتِ هندوسية أم مسلمة؟"، آللّه ديتا متشكّك كعادته. وبدأ رفاقه يبتسمون.

سأله أحدهم "ماذا يدور بعقلكَ؟" وهو يلكز آللّه ديتا في أضلعه. "تريد أن تأخذها إلى منزلك؟"

"أُف، أنا .. هندوسية!" وسحبت خفّها ناحيتها بقدمها، وأحكمت وضع صُرّتها على رأسها.

دمدم آللّه ديتا "لا يَشِم الهندوسيّ اسمه على جبينه، صحيح؟"

قالت "يا أخي، ألا يروق عقلك من الشكّ؟ انظر، اسمي حميدة"

سحبت كمّ ذراعها اليسرى فبانت الحروف الموشومة.

"امضي بسلام، يا امرأة! فهو ليس نفسه اليوم" صاحت المرأة العجوز من بعيد.

"إن وجدتُ أيّ دليل، فسآتي بنفسي لأخبركِ يا آما". وخرجت حميدة مسرعة قدر ما تحملها قدماها.

استأجر رشيدة عربة إكا لرحلة العودة وجلب عائلته من راتوفال إلى صقّار.

كانت لاجو تنتظر، عيناها بالباب في انتباه. وبمجرد أن سمعت وقع أقدام تدنو، اندفعت تفكّ المزلاج. دخلت العائلة وربطت الباب من الداخل. احتشدوا جميعاً مثل قطيع من المها مفزوع في كهف بغابة.

حين انتهوا من طعامهم، كان الوقت متأخّراً نوعاً ما. فأدرك رشيدة أن المرأتين تريدان الاختلاء بنفسيهما لبدء حوار من القلب للقلب، فنقل فِراشه إلى غرفة أخرى.

وضِعَ الولدان في الفِراش. قرّبت المرأتان فِراشيهما كلٌّ تجاه الآخر.

قالت حميدة، تفتتح الحوار "اللاجئون المُبعَدون من راتوفال مرّوا بهذه القرية".

سألت لاجو "رأيتهم؟"، لم تعرف كيف ولماذا أنقذتها حميدة.

"قابلتُ أخاكِ؛ وهكذا سمعتُ عنكِ".

"كيف تعرّفتِ عليه؟ فأنتِ لم تريه".

ردّت حميدة "رأيته مرة من قبل". أخبرت لاجو عن لقائها رام شاند في الحقول. كما أخبرتها كيف أنها لم تكن تعلم شيئاً عن زواج رام شاند بأختها الصغرى إلى أن التقته ثانيةً. "لم أسمع حتى مرّوا يوم أُبعدوا من هنا". وبعد آهة طويلة، واصلت "ينصُب الناس الأزلام للموتى؛ لديهم أعياد جنائزية، ويقدّمون الهبات إحساناً. ألا يزال أحد يذكر اسمي في بيتنا؟"

أخبرتها لاجو أن والد حميدة مات في العام الماضي، ظلّت أمها تنادي باسمها في نواحها.

"أمي المسكينة! فقدت ابنتها أولاً ثم زوجة ابنها!"، وانهارت المرأتان تبكيان.

"عندما ترجعين اطلبي من أمي أن تزورني مرةً على الأقلّ قبل أن أموت"، وكانت حميدة تنشج.

"لـ... لن أصل هناك قطّ".

"لا، ستصلين. سترجعين إلى بيتكم، إلى زوجكِ وأخي".

"لم أعد نافعة لأحد الآن. فلن يقبلني أحد".

"لاجو، لن أسمح بمثل هذا الشرّ وأنا حية. ستعودين حتماً إلى بيتكم. ليس لأحد أن يلومكِ على ما صار معكِ".

سألت لاجو "أيّ ذنب اقترفتهِ كي لا يتودّد أحد إليكِ حتى يومنا هذا؟"

"صحيح. لكني كنتُ الوحيدة. لم يملك والداي الشجاعة لمواجهة إهانات جيرانهم وأقاربهم: عليهم أن يكظموا غيظهم. لكن لم تعد واحدة الآن ولا اثنتين، بل مئات الآلاف خُطفن من أحضان عشائرهن".

"لا، يا پورو، هذه قِسمتي، وإلا لما تعرّضتُ لهذا الخزي. فلن يأتي أحد ليأخذني".

طمأنتها حميدة "بل سيأتون. حين يكتب أخي، سنُرسل له إفادة عنكِ. وكيف يبدو شكل أخي الآن؟"

جلب السؤال في عقل لاجو صورة زوجها. فكيف تواجهه. ماذا سيقول لها أفراد العائلة الآخرون؟ كانت مقتنعة أنه لن يأتي أحد إليها. كان ذلك مأدبة من الخيال أكلت منها حتى الإشباع.

كرّرت حميدة "لاجو، هناك شخص ملتزم بالمجيء إليكِ. ليس لأحد اليوم أن يلوم الآخر. فالناس خُطفت بناتهم وأخواتهم. يخبرني رشيدة أن الرجال قد عبروا إلى الهند بحثاً عن زوجاتهم وعادوا بهنّ. وكان لبعضهنّ حتى أطفال". لا تعرف لاجو لماذا لا تقتنع. كانت رحمة من الله، وإلا لكانت في محنة أسوأ مما هي عليه في الحاضر. "إن عائلتنا التي حزنت لفقدان واحدة منا، ستحزن الآن لوفاة اثنتين. پورو، لم يعد عندي مكان أذهب إليه. بأيّ وجه سأظهر لهم؟ سأرعى ولديكِ مقابل أن تُطعميني".

"لا تتكلّمي هكذا وترشّي الملح على الجرح. فهذا بيتكِ. لكنهم ملتزمون بالمجيء إليكِ. سأجعل العالم كلّه يناشدهم ويقنعهم". وأخذت لاجو في حِضنها.

سألت لاجو "كيف حالكِ أنتِ؟"

"ارتكب رشيدة جُرماً طبعاً بخطفي. لكنه صار لطيفاً معي فيما بعد. وإذا لم يمدّ لي يد العون، فكيف كنا سنلاقيكِ ونجلبكِ إلى هنا؟"

"وضع حياته في خطر مُحدق. ولو اكتشف الوحش لحطّم كلّ عظمة من عظامي ثم أحرق جثتي".

"هم لا يحرقون موتاهم، يدفنونهم".

"پورو، ألا تخشين أن يكتشف الأمر ويأتي بحثاً عني؟ قد أجلب التعاسة لعائلتكم السعيدة".

"لا دليل لديهم؛ ولا أثر يدلّ على ظلّكِ". وحكت حميدة عن زيارتها المرأة العجوز وابنها بعد اختفاء لاجو. "أخفيتُ امرأة هندوسية بهذه الغرفة الخلفية، ولم يسمع بها أحد. تركتها مع لاجئين مُبعَدين. سنُخفيكِ هنا دون أن نخبر أحداً في القرية. وبعد أن تصلنا رسالة من الهند، سنأخذكِ بهدوء إلى لاهور. فلا أحد أذكى منا".

"ماذا يحدث إن لم يكتب لي أحد؟"

"قلبي يحدّثني أن أخاك لن يخذلكِ".

وكرّت أيام؛ أشرقت الشمس وغربت بانتظام رتيب، لكن لم يتغيّر شيء من فحوى حياة لاجو. لم يتوصّل أحد لمعرفة مكانها، ولا تلقّت خبراً من عائلتها. حميدة، رفيقتها الوحيدة. تتكلّمان حتى وقت متأخّر من الليل، حتى يثقلهما النوم. وعندئذٍ يكون نومهما مليئاً بالأحلام. تستيقظان في ساعة مبكّرة وتستأنفان حكاياتهما؛ أخبرت كلٌّ منهما الأخرى عن أحلامها ومغزى كلّ منها. تهبط معنوياتهما أحياناً، وأحياناً أخرى يُفعمهما الأمل، لسبب بسيط.

قامت حميدة برعاية لاجو كضيفٍ مُكرّم، شخص تثق بأن تحفظه في أمان أياماً ثم تتركه للأبد. رأت في وجه لاجو أوجه أفراد العائلة جميعاً، أولئك الذين انفصلت عنهم. عرفت أنه لا لن يأتي أحد منهم كي يبقى معها أو يزورها. أما أقاربها الأقدمون، فكانت لاجو أول وآخر ضيف.

أفسح الشتاء دربه أمام الربيع. فقد الشتاء رعشته. دخل رشيدة، ذات ظهيرة، وبمجرد أن رأى لاجو وحميدة طفحت عيناه بالدمع. قامت المرأتان وذهبتا إليه. لم ينبس رشيدة بكلمة من شفتيه لفترة طويلة. غاص قلب لاجو حين ظنّت أن أكثر ما تخشاه قد صار. المرأة العجوز وابنها قد توصّلا لمعرفة مكانها وسوف يجرّانها بالقوة. فماذا سيفعلان بحميدة وعائلتها؟

استراح رشيدة على الفِراش وهو يمسح عينيه بكُمّه. ثم ربّت

على ظهر لاجو في حنان، كأب عجوز يربّت على ابنته حين يرسلها لزوجها. قال "سيأتي رام شاند، اليوم".

سألت المرأتان بصوت واحد "هنا؟"

"نعم. مع قوة من الشرطة الهندية والباكستانية. وكان لي معه كلام خاصّ حين اختلينا بنفسينا".

سألت لاجو بانفعال "جاؤوا فعلاً من أجلي؟" ثم شعرت بارتباك قليل.

ردّ رشيدة "بلهاء! وماذا يجلبهما هنا غيرك؟"

لم تقل حميدة شيئاً، لكنها أحسّت، مسرورةً، أن إيمانها برام شاند كان في محلّه. كانت لاجو تستسلم، وحتى رشيدة يُصاب باليأس أحياناً؛ حميدة وحدها لم تفقد الأمل.

سألت لاجو "جاء وحده؟"

فهم رشيدة ما كانت تودّ معرفته. "نعم، جاء وحده. لكن لا تخافي. فسيُرحّب بكِ أقاربك جميعاً".

أحسّت لاجو بالطمأنينة نوعاً ما.

"شرحتُ له أنه إذا سلّمناك هنا، فسيعرف كلّ من في القرية بالأمر. وربما يصل الخبر إلى راتوفال. طلبت منهم أن يعودوا إلى لاهور وينتظروا أن أحضر لاجو إليهم".

قالت حميدة "فعلتَ خيراً".

"سنكون في لاهور بعد خمسة أيام. سيأتي أخو حميدة من أمرتسار. وأظنها فكرةً جيدة أن تقابل حميدة أخاها أيضاً". وضع رشيدة يداً رقيقة على ظهر لاجو.

بدأت حميدة تبكي. وضعت لاجو رأسها على حِجر حميدة، ثم ضمّت خصرها. لديهما الكثير عموماً؛ فقد امتزجت أحزانهما ودموعهما معاً.

في الصباح التالي أرسلت حميدة في طلب طحين الحمّص. صنعت حلوى بشرائح جوز الهند والفواكه المجفّفة والزبد التي تدّخرها. كما صنعت لها ثوباً من حرير خالص، فكأن لاجو ابنتها وقد عادت إلى بيت زوجها.

في اليوم الثالث تركوا القرية والوقت لايزال ظلاماً، فلحقوا بالقطار المتّجه إلى لاهور.

قابلوا عناصر الشرطة الذين فرضوا حراسة حولهم. لم تستطع لاجو رفع عينيها في عينَي زوجها. قابلت حميدة أخاها، وهي تعرف أنه قد يكون في الوقت عينه أول وآخر لقاء؛ ساعة من الوصال يعقبها انفصال أخير. شعرتا بالعجز قبل أن ينفذ أمر القضاء. لا شيء قد يحكيه الواحدُ للآخر. أقصى ما يمكن فعله أن تبكيا مثل الأطفال ثم تمسحا دموعهما بظهر يديهما.

كانت حميدة أول من تكلّم "أضرَع إليكَ أن لا تضع وصمة عار على عاتق لاجو".

سقط نظر زوج لاجو في خزي؛ كما احتفظ رام شاند بنظرته

جامدة إلى الأرض. بعد برهة أجاب رام شاند: "پورو، لا تخجلينا بهذه الطريقة".

لم يغصب زوج لاجو نفسه على قول شيء. وربما لم يلفت انتباهه ما يقولون. فهو لم يقابل فحسب زوجته التي فقدها بل التقى أخته أيضاً التي ضيّعها قبل أن يصبح كبيراً بما فيه الكفاية ليتذكّر. طيلة هذه السنين، كانت نار الكُره كامنة داخله. وقد استعمل جمرة من تلك النار ليُهلك محصول رشيدة فيُحيله رماداً. والآن هذه أخته نفسها التي ضيّعها من زمن طويل، جالسةً أمامه. يغفُل عن حقيقة أن رشيدة هو مَن أنقذ زوجته، لاجو؛ وقرّ عقله فقط على حقيقة أن رشيدة هو مَن خطف أخته.

استعدّت سيارة الشرطة. صرخ عنصر هندي: "الهندوس الذاهبون إلى الهند، تعالوا من هذه الناحية! الباص جاهز!"

عانق رام شاند رشيدةَ، وكرّر مرة وأخرى: "أخي، لقد كنت طيباً معنا؛ لن أنسى المعروف الذي ندين لك به". عكس وجه رشيدة كلاً من الفَخَار والخزي. الأول من الانقلاب الجيد الذي صنعه لأجل لاجو، الثاني من أنه خطف پورو. شعر أنه ردّ دَيْن الشرف الذي يدين به فيما يخصّ ذلك.

صرخ صوت آخر: "الهندوس المتّجهون إلى الهند، من هذا الجانب!"

وضعت حميدة الملابس الحريرية والحلوى بين يدَي لاجو، عانقتها بحرارة مرات كثيرة، ثم فجأة ضمت أخاها إلى صدرها.

قال أخوها، ممسكاً بها من ذراعها "پورو! هذه فرصتكِ الوحيدة..."، وقد فهمت حميدة ما كان يقول وغلبها الإغراء وهلة قصيرة. عرفت أن عليها فقط أن تقول إنها كانت من الهندوس وعليهم أن يضعوها بالباص ويأخذوها لتعود إلى أهلها. مثل لاجو، مثل آلاف النساء الأخريات في البلاد، هي أيضاً... لكنها جعلت أخاها يُطلق سراح ذراعها، وعادت إلى رشيدة حيث يقف، فحضنت ابنها في صدرها.

قالت لأخيها "حين ترحّبون بعودة لاجو إلى بيتها، فكأن پورو قد عادت إليكم. إن بيتي الآن في باكستان".

شرع الباص يمضي برحلته، مخلفاً الطريق المهجور في سُحب من غُبار.

قصائد

قِبلة الحجيج[1]

آه! بحيرة قلبي طافحة
كم تحطّ أفكاري عنكَ في خِفّة
على مياهها، مثل بجعٍ مصفوف.

الطرقاتُ حولي وبقُربي لا تبدو
سوى طرقات تتلاشى في حلم
مغطّاةً بلمعةِ الزعفران؛
يهلّ الربيع على قلبي ببسمته الواهنة
فترةً، مثل عابرِ سبيلٍ،
ينهَلُ المزيدَ من مائه ثم يمضي.
يشرع المساء في ضَفْر شَعرِه،
مع أول شعاع من الشمس يثقُب الهواءَ
منطلقاً من قوسها الذهبيّ:
مهما حاول الفجر
سحن الحنّاء للأرض، للعروس،
فهي تستحي من خِزي ملبسِ عُرسها

1 Mansrovar: مكان هو قِبلة الهندوس للحج المقدّس. م

وقد بَلِيَ وتمزّق!

راحَ الحبّ الساذَج من هنا وهناك
ناثراً سِحره في كلّ موضعٍ
على نحو لا يعرفه أحد؛
سئم من اقتلاع نبتة الشنبق(1)
الوهمية من الرمال، بيد متعبة
وكأنها تبرعم.

لم أعد أسمع صوتكَ ولا أرى أثراً
يدلّ على صورةٍ لوجهكَ الغالي،
لكن قلبي كامل، آه!
كلّ فكرةٍ عنكَ مثل بجعةٍ
تلقُط منْ عينَيّ لؤلؤ دمعي
المسيلَ في دفقٍ غير منقطعٍ.

وقد صار الترقّب نفسه
جرحاً يواصل نزفه حثيثاً.

---

1 champak : نبات صحراويّ، أصفر الزهر. م

النَدبة

(هكذا قال ابن امرأة خُطِفَت باضطرابات 1947،
التي صاحبت فجر الاستقلال في الهند وباكستان)

إني أنا أيضاً من فصيل البشر...
أنا أثر الجرح،
رمز الحادثة،
التي ضربَت كالقَدَر، في صدام
أزمنةٍ متغيّرة، جبينَ أمي.

إني أنا اللعنةُ
التي تُحدِقُ في إنسان اليوم.
جئتُ إلى الوجود
حين كانت تسّاقط النجوم
وقد أطفئت الشمس
وأُعتم القمر.

إني أنا ندبة الجرح
العَسَف الذي خاقَ بجسم أمي،

وطأة الوحشية التي قسراً
قيّدت أمي أشهراً.
وكان ثَقبا أنف أمي ينفثان
النَتَنَ من الداخل.

من يُقدّر
كم كان عصيًّاً
أن نربّي البربرية في بطن امرئ
فتستنفدُ الجسمَ وتُحرق عظامَه؟
إني ثمرة من ذلك الموسم
حين أزهر توتُ الاستقلال.

عهد

محفورةً بخطوطٍ من اللوعة
راحة يدي وهي تَحفظُ عهداً:
خطٌّ الوَعدِ يسبقُ
خطَّ العمر.

تستفسر
كم يُعمّر حبّي.
لا تعلَّم الحبُّ عادةَ الكلام،
مَن لم يتعلّم بعد، كيف يسمع؟
الحبّ يزهو دون ثروة الكلمات.

تنفّسي تحت رحمةِ جسمي
وقد ينقطع أيّ وقت.
لكن نقوش حبنا
على صدر الزمن

لا يُمحوها شيء.

هير[1] لم تقلّد ليلى،
ولا المجنون كان مثال رانجا.
فلا يُكرّر الحبّ قصّته
كلّ صفحة منه غِرٌّ لا شبيهَ له.

سهامُ اللوعة
تثقب راحتي ثم أطراف أصابعي؛
لكن فوق أهداب ثوبي الممزّق
أملٌ يستثيرُ الحياةَ.

أقسم بالصبح الأرجوان
أن موجَ شنابَ[2] ليس نهايتي.

محفورةٌ بخطوط من اللوعة
راحة يدي وهي تَحفظُ عهداً:
خطُّ الوَعدِ يسبقُ
خطَّ العمر.

---

1 للهندوس أربع غراميات رومانسية قديمة، شبيهة بغرام ليلى والمجنون العربية: هير ورانجا - صاحباه وميرزا - ساسي وبونون - ماهيوال وسوهني. م

2 Chenab: أحد أنهار البنجاب الخمسة، غرقت فيه العاشقة ساسي. م

أجرة يومية

بمنطقة من السماءِ فقيرةٍ
يصفّرُ الليلُ
فتدفُقُ مِدخنةُ القمرِ دُخانَها الأبيضَ الكثيفَ.

إطفائيُّ الأحلام
يجرفُ أورامَ الرَغبةِ السوداءَ،
فيملأُ الليلَ بقوَّته الداكنةِ
بفيضٍ من الجُهدِ والعَرَق
حتى يبلغَ قلبَ النارِ
فتنالَ المرأةُ حظّها من الرجلِ وتطحنهُ
كعاملِ مزرعةٍ يقرفص
برغيفٍ مع بصلةٍ في يده
يطحنُ وجبتَه المسموحَ بها مرةً،

تملأُ آنيتَها الفارغةَ بالأحلامِ
وهي تغلي لتنضجَ على النار
فتلتهم مثلَ حيوانٍ

تلحسُ الآنيةَ ثم تطرحُها
لتُدفئَ يديها فوق هامدِ الرمادِ.

بمنطقة من السماءِ فقيرةٍ
يصفّرُ الليلُ
فتدفُقُ مِدخنةُ القمرِ دُخانَها الأبيضَ الكثيفَ،
تتثاءب المرأةُ، تحمدُ الليلَ على أُجرةِ يومها

وتتمتمُ
ما أكسبهُ آكُل بهِ
لا حبةَ أرزّ من أواني أمسِ
ولا شفرةَ عُشبٍ من نارِ المستقبلِ.

قصص قصيرة

كانجاك[1]

لم تذُب ظلمة الليل بعدُ في الفجر حين نهضت داروبادي من فِراشها المشدود مذعورةً. هكذا تستيقظ كلّ يوم، في باكورة الصبح. اليوم هو السابع من صومها من أسبوع نافاراتا المقدّس.

صبّت داروبادي زيت الكيروسين على الأغصان بالمدفأة، أشعلت النار ووضعت حبّات البطاطا في غلاّية لتسلُقها. قبل بداية يوم الصوم الطويل، تعمل وجبة من البطاطا المهروسة المحلاّة بالسُكّر. فمحظور عليها، كباقي الملتزمين دينياً، تناول الملح والطحين في أثناء فترة الصيام.

فكّرت في الصباح التالي أن تنهض أبكر. سيكون يوم صيام آشتامي، وعليها أن تُطعم الكانجاك ـ بنات صغيرات عازبات يُحيين هذه المناسبات. ستخبز خبز البوري[2] ليؤكل مع الحمّص والبطاطا، متبّلة بالزبد والتوابل. تعدّ الحلوى[3]، وتوقد الشموع

---

1 Kanjak: عبادة بوذية، تُجلب فيها العذارى للاحتفال بعيد نافاراتا Naurata المقدّس عند الهندوس. يوم Ashtami، وهو ثامن أيام الصوم في هذا العيد. م

2 Puris : كعكة هندية منفوخة، من القمح الأبيض المسلوق. م

3 Halva: حلوى من رقائق بذر السمسم المطحون في إناء فيه شراب حلو. م

وتدعو بنات الكانجاك من كلّ عائلات الجيران. تغسل أقدامهنّ، وتخطّ السندور[1] في جباههن وتربط الخيط المقدّس حول معاصمهن. ثم عليها أن تضع أطباق الطعام أمامهنّ، مع بيزتين[2] فوقها كنوعٍ من التقدمة.

تذكّرت داروبادي من زمن طويل، وهي تدنو من التاسعة، كيف أعطتها أمها شالاً وردياً لتلبسه. تذهب إلى بيت عمتّها وهي كانجاك في عيد آشتامي، تتدلّى أساور زجاجية خضراء خفيفة من ذراعيها. هذه العمّة صديقة أمها، وكانتا مرتبطتين كلٌّ بالأخرى في تعاطف أخويّ بعهد ثنائيّ.

حدث عندئذ، وكانت داروبادي كانجاك ـ عذراء تقريبا في العاشرة، أن خُطبت لأحد أولاد أخت العمّة، وكان يومها بالحادية عشرة أو الثانية عشرة. وبعد أشهر تزوّجا. لكن، كما جرت العادة، عادت داروبادي أدراجها بعد أن بقيت يوماً في بيت حموَيها. لم يكن عليها أن تعود إلا بعد سنتين. لكنها لم تعد كانجاك بل زوجة.

كان قد بقي خمسة عشر شهراً من السنتين عندما سقط الزوج الصغير صريع المرض ومات. وحدّت عليه العائلة. لم تعد داروبادي زوجةً بل أرملة. لم تكن قد رأت زوجها وقت الزفاف، ولا بعده. المرة

---

sindur1 : خطّ أحمر يُرسم بمفرق شعر المرأة، دلالة أن المرأة قد تزوّجت، عند الهندوس. م

pice 2 بيزة: عملة هندية قديمة كانت تعدل جزءاً من 64 من الروبية، العملة الحالية. م

الوحيدة التي رأته فيها، عندما ذهبت إلى بيت عمّتها كواحدة من الكانجاك في عيد آشتامي.

غداً سوف تُطعم داروبادي الكانجاك. ستغسل أقدامهنّ بيديها. تربط الخيط الأحمر والأبيض حول معاصمهنّ الرقيقة الصغيرة، ثم تنحني لهنّ في تَجِلّة. مال رأسها وهي تتأمّل: تلك الربّات الصغيرات - مثلها، من الآن فصاعداً، حتى تبلغ الستّين - هنّ عذارى الكانجاك... خفضت رأسها، فرأت قدميها - كانتا طويلتَين، مشقّقتَين، مغضّنتَين، فارتاعت. فكّرت، إن لعذارى الكانجاك أقداماً صغيرة بيضاء ومعاصم رفيعة مدوّرة. تطلّعت في ذراعيها: لا توجد أساور زجاجية حول كتل لحمها الرخوة الواهنة.

"آما"، انفجر صوت من غرفة لصيقة للمطبخ. تذكّرت داروبادي فجأة أنها وضعت البطاطا على المدفأة لتسلُقها ولم تُجهّز الشاي بعدُ من أجل مالتي.

فأجابت "تعالي يا ابنتي"، وهي تُعيد إبريق الشاي إلى النار.

مالتي ليست ابنتها، طبعاً، فهي ابنة أخي زوجها الأصغر. فبعد سنتين من زفاف داروبادي، كان عليها أن تلزم بيت حَموَيها. غير أنَّ زوجها مات، بعد سنة وثلاثة أشهر من ذهابها أول يوم. على شرف اسمه جاؤوا بالأرملة إلى منزل حَموَيها. وقد عاشت هنا صابرةً لخمسة عقود.

في الوقت المحدّد، فقدت داروبادي حماها وحماتها، ثم والديها.

فبقيت لدى أخي زوجها، أصغر أخوة زوجها الفقيد، وزوجته، عاشت معهما في المنزل.

لم يكن لزوجة أخي الزوج ابن، وحزنت كلتاهما لذلك. "فمن سيلقي الحلوى على توابيتنا"، كانتا تأسفان غالباً "ليته يوجد وريث ذكَر في العائلة؟ فمن سيقدّم الماء لأرواح أسلافنا وقت العيد السنويّ؟"

وبعد زمن ولدت زوجة أخي الزوج ابناً. جاء آخر بعد عامين، ثم آخر. انغمست داروبادي في تربية أولاد زوجة أخي الزوج، واطمأنت إلى أنه هنا الآن فرد ذكَر في العائلة لينجز مراسمها الأخيرة حين تموت.

كان الأولاد كلّهم ينادونها آمان. كما يناديها أخو زوجها أيضاً آمان بدلاً من لقب بابي[1]. ولم تكن تميّز تقريباً فهم مغزى التعبيرين.

بدأ الإبريق يجيش ويئزّ. فرمت داروبادي ورق الشاي بسرعة في الوعاء وصبّت عليه الماء الساخن. التقطت الكوب وصحنه بأقصى عناية، ثم وضعت بالصينية الحليب والسُكّر وإبريق الشاي، وذهبت إلى غرفة مالتي. وضعت الصينية بهدوء على الطاولة الصغيرة بجانب الفِراش. تخشى تقريباً من لمس هذا «الصينيّ»، فهو رقيق للغاية ويتطلّب قدراً من العناية عند تناوله. كانت داروبادي، طيلة

1 Amman : لقب تحبّب للنساء العجائز، أما Bhabi فهو لقب تحبّب للزوجات. م

حياتها، تشرب لبنها الرائب[1] في إناء برونزي وشايها في وعاء نحاسي. ولأن الأولاد الذين يدعونها آمان كبروا وبدأوا الدراسة في الكلية، فقد كفّوا عن تناول شايهم من تلك الأواني المعدنية الطويلة. جلبوا من السوق أكواباً مع صحونها، ثم علّموا عمتّهم كيف تستخدمها وكيف تخمّر الشاي دون غليه على النار. لطالما استمع الأولاد لها، كانت تعطيهم الحليب عليه كثير من الكريمة. والآن يشربون شاياً سادة خفيف القوام، يخبرونها أن حليب الجاموسة ثقيل يُعوّق الدماغ.

منذ أمس والرجل الشابّ الذي ستتزوّجه مالتي ماكث في البيت. ينام في الغرفة المجاورة، وطلبت مالتي من آمان أن تقدّم له الشاي أيضاً.

بينما همّت داروبادي بدخول الغرفة، انقلب الرجل الشابّ على جنبه، وهو في نوم عميق. من تحت طيات البساط الذي يلفّ به نفسه مرتاحاً، سقطت شذرات قليلة من زجاج تحطّم بصوت مزعج إلى الأرض. وقفت داروبادي ذاهلة، بلا حراك من وميض نُثار الزجاج أمام عينيها المعتمتين، راسماً سلسلة مترجرجة غير متناهية. وقد أحسّت بحلقها يختنق وقدميها ترتعشان لحظة سارت خارجة من الغرفة.

ولصرف انتباهها، قالت مارتي التي سمعت نُثار الزجاج الذي

---

1 lassi : نوع من اللبن الرائب. م

سقط على الأرض: "آمان، أليس هذا هو اليوم الذي تربطين فيه الخيط المقدّس حول معاصمنا، وأنتِ تطعميننا الحلوى وكعكة البوري؟"

"لا، يا ابنتي! ليس اليوم. بل غداً". ولم تستطع داروبادي قول المزيد، فعادت إلى المطبخ.

كان عليها في الصباح التالي أن تُجلس الكانجاك في صفّ، عذارى الكانجاك، كبيرات وصغيرات. ستكون مالتي أيضاً واحدة منهنّ، أما هي، المرأة العجوز التي ناف عمرها عن الستين، عليها أن تنحني أمامهنّ فتحييهنّ في تجلّة! بدت تجعيدة فوق جبين داروبادي وهي تتأمّل. ستأتي غداً إلى البيت عذارى كانجاك بسنّ العاشرة، والثانية عشرة، والخامسة عشرة. هي نفسها كانت عذراء كانجاك منذ ما يزيد عن ستين سنة. فهل تنحني لهنّ جميعاً؟ لقد تصلّب جبينها.

من أجل زوجها الفقيد تراقب مواعيد صيام نافاراتا بشكل صارم منذ نصف قرن. أطعمت مئات من الكانجاك. وكثير من عذارى الكانجاك سيكنّ نساء متزوّجات قبل أن يحول الحول على عيد نافاراتا القادم، وتحلّ محلّهنّ عذارى جدد. تذكّرت أنها أطعمت وبجّلت بنات أولئك اللواتي جئن إلى بيتها عذارى كانجاك. فالكانجاك يأتين ويرحن كدِلاء ماء في البئر، لكن لا أحد منهنّ ظلّت كانجاك طيلة حياتها.

تحسّ اليوم كأن الأرض انشطرت نصفين؛ كأن وثاق العمر الطويل انحلّ أخيراً. قلبها يتلوّى في ألم. تشعر بحسّ من الارتداد ينهض فيها. غلبها دوار وارتجفت يداها. عندئذٍ، وهي تزمّ شفتيها، نهضت فرمت في الحوض البطاطا التي كانت تهرسها بمسحوق الفستق لوجبة الصباح قبل بداية صوم السابع من نافاراتا. ثم التقطت حفنة من حبوب القمح يُحظر على النساء تناولها وهنّ يصمن نافاراتا من جرّة خزفية بالركن البعيد من المطبخ، ودفعتها في فمها الأدرد.

كشفت أولى أشعة الشمس داروبادي وهي راقدة فوق أرضية المطبخ فاقدة الوعي...

كارما والي

كان خبز الشاباتي الطالع من الفرن هشّاً وساخناً والأشدّ إغراءً. فغمرتُه بخضار الكاري وقضمتُ منه لُقماً صغيرة.

صحتُ وأولادي "هناك فلفل كثير في الكاري!"، فقد أحرق الكاري أفواهنا.

قال صاحب الفندق "في الأغلب يتردد أفراد الجات[1] إلى فندقي. وثمة محلّ واحد للخمور بُعيد أميال من هنا. وحين يسكر أفراد الجات فإنهم يحبون تناول شيء حرّيف".

"الجات...".

"نعم، بُنيتي، كلّ أفراد الجات يستلذّون بنقطة خمر. وعندما يرتكبون جريمة قتل يحبون أن يشربوا حتى الثمالة".

"شيء مريع!"

"منذ يومين، اقتحم اثنان منهم الفندق، في منتهى السُكر. كانا قد قتلا رجلاً وتصرفا بفظاظة. ألا ترى تلك الكراسي المحطّمة؟ من فعلهما. ومن رحمة الله أن الشرطة وصلت في الميعاد، وإلا

---

1 Jats : واحدة من قبائل البنجاب. م

استحال فندقي انقاضاً. عموماً، أنا لا أشكو. فهم مصدر رزقي الرئيس".

كان شغفي أن أرى نهر كاوشالياه[1] هو الذي أفضى بي ثانية من شانديجراه[2] إلى هذه القرية. بدأ كلامنا عن الفلفل. لكنه تحوّل من الفلفل إلى الخمر ثم إلى فظائع إراقة الدم. حكاية طويلة، فعلاً. وصرت متلهفاً إلى الهروب بالولدين من المكان.

المطعم جنب الطريق، أرضيته مكسوة بالجصّ والطين، نظيفة مرطّبة. قُسِّم جزءٌ منه بستارة من أكياس الخيش حيث يلمح المرء، من طرفها الواطئ، أرجل ثلاثة أسرّة واقفة. أحسست بالاطمئنان. فليس بوسع مكان تسكنه عائلة أن يكون خطراً.

لم أخطىء في حدسي. فقد اختلَسَت امرأةٌ النظرَ من خلف الستارة. ظهرت، ووقفت أمامي.

قالت "ألا تعرفينني؟"

شابة، ملبسها بسيط. حدَّقت في وجهها. لم يذكِّرني ذلك بأي شيء. لم أتعرّف عليها.

"عرفتُكِ فورَ أن رأيتكِ"، واصلَت، تصحّح نفسها "جئتُ هنا السنة الفائتة. لا، في السنة التي قبلها".

---

1 Kaushaliya : نهر في منطقة البنجاب. م

2 Chandigarh : ولاية في البنجاب. م

"نعم، جئتُ هنا السنة قبل الماضية".

"حينَها كان موكب عُرس في الميدان".

"موكب عُرس؟ نعم، أذكُر".

"كنتُ في مِحفّة - العروس. وقد نفحتِني روبية".

ثم هلّ كلّ شيء حياً على بالي. منذ حوالي سنتين طلبَت مني إذاعة دلهي أن أتلو قصيدة لي في افتتاح محطّة إذاعة شانديجراه. وبعد أن انتهى البرنامج، قرّرتُ وبعض من صحابي أن نقوم برحلة إلى نهر كاوشالياه. كان الطريق يمضي عابراً هذه القرية ثم ينحدر تجاه النهر على بُعد ميل ونصف. أنهكنا صعود التلّ، في طريق العودة، فشعرنا بالحاجة إلى تناول كوب شاي ساخن. فبدا هذا المطعم جنب الطريق كأنه الأشدّ رحابة والأنظف، فقرّرنا النزول إليه. يومها، إضافة إلى خبز الشاباتي الطالع من الفرن واللحم المطهوّ، وهو الطعام الذي يقدّمه المطعم في العادة، زدنا أيضاً بملء صحن من الحلوى.

قال صاحب المطعم "سيمرّ اليوم موكب عُرس بنت أختي من هذه القرية. كان من واجبي تجاه ابنة أختي أن أستضيف الموكب. عليّ أن أُكرِّمهم".

كنا لا نزال في المطعم حين وصل الموكب. بطلبٍ من خال العروس وقف في الميدان عبر طريقه إلى القرية التالية.

قال أحدنا "الزواج شيء ساحر. حين يدخل امرؤ قفص الزوجية، يبتسم كلّ شيء في مسرّة، ثم حين ...". مع كلّ رشفة شاي ينتعش النقاش أكثر فأكثر.

قلتُ "إذا انتظرتموني فسأذهب لألقي نظرة على العروس. أحبّ أن أرى تعابير وجهها".

بينما كنت أقترب من المِحفّة انفرجت شفتاي عن ابتسامة واهنة. هناك فَتحة في أحد طرفَي الغطاء. "هل لي أن أُلقي بنظرة على العروس؟"، سألتُ المرأة المُزيّنة، وصيفة العروس إلى بيتها الجديد.

قالت المرأة في كرم "على الرحب، سيدتي[1]، فعروسنا جميلة لا يَعيبها شيء".

نعم، كانت العروس جميلة كاللؤلؤة البرّاقة بقُرط أنفها الشرينجاربري[2]. وضعتُ ورقة روبية في يدها وابتعدتُ.

قال أحد رفاقي، مازحاً "لو عرفت العروس أنكِ شاعرة مرموقة، لطلبَت توقيعكِ على الورقة النقدية".

استطعتُ استدعاء كلّ تفصيلة، مع أنها حدثَت منذ سنتين.

"أنتِ الفتاة ذاتها - العروس، التي رأيتُها بالمِحفّة؟"

---

1 Bibiji : بمعنى lady ، سيدتي. م

2 Shringarpure : نسبة إلى منطقة بهذا الاسم في البنجاب. م

"نعم".

في خلال سنتين، تغيّرتْ من فتاة جميلة لامرأة مهمومة. أرى أن الحياة قد عركتها بقسوة.

لم أعرف كيف اجتذبها إلى الكلام بحرية.

قالت "رأيتُ صورتكِ في الجريدة. ليس مرة، بل مرتين. تعرفين، ينسى الزبائن جرائدهم هنا أحياناً. وجدتُ صوركِ مصادفةً بواحدة منها".

"أمر شيّق؟ وتعرّفتِ عليّ؟"

"نعم، فوراً. لكن لماذا يضعون صوركَ بالجريدة؟"

لم يسألني أحد هذا السؤال. لم أعرف كيف أردّ عليها. فقلتُ، بشعور من الحرج "لأني أكتب قصائد وقصصاً".

"قصص؟ تكتبين قصصاً ـ قصصاً حقيقية؟"

"نعم، قصص حقيقية؛ لكن الأسماء مزيّفة ـ كي لا يعرف أحد مَن تحكي عنه".

"هلاّ تكتبين قصّتي؟"

"أكتبها طبعاً، لو أردتِ".

"إسمي كارمنوالي[1]. لا حاجة بكِ أن تُخفي اسمي. يمكنكِ كتابتُه، كما هو. فلا أخشى قول الحقيقة. لكن لا أحد ينصت إليّ، لا أحد يهتم".

وتناولت يدي، فقادَتني إلى الفِراش خلف الستارة.

"قبل زواجي جاءت امرأتان من منزل حَمَوَيّ لأخذ قياساتي. كانت إحداهما فتاة، ناضجةً فعلاً. في سنّي بالضبط. ابنة عم بعيدة لزوجي".

"قالت بعد أن حسبت قياس بنطالي وقميصي نلبس المقاس نفسه. سأصنع لكِ ملابس تناسبكِ بالضبط".

"وصحّ ما قالته. فملابس العُرس التي أُرسلت لي جزءاً من الجهاز كانت بالضبط على قياسي. عاشت معي الفتاة عدّة أشهر، خاطت ملابسي جميعاً. كانت مغرمة بي. حين تركت منزلنا سألتني ألاّ يخيط ملابسي غيرها، حتى لو سافرَت أشهراً؛ فستخيطها حين تعود".

"أحببتُ الفتاة كثيراً كما أحبّتني. ثمة شيء واحد فقط في سلوكها يضايقني: حرصت على أن تجرّب ملابسي كلّها على نفسها قبل أن تُسلّمها لي. تقول قياساتنا نفسها. انظري كم تناسبني ملابسكِ كثيراً؟"

---

1 Karmanwali : بمعنى المحظوظة، في اللغة البنغالية. م

"وعلى الرغم من جدّة الملابس، لم أستطع التخلّص من شعور أن غيري قد لبسها".

المرأة خرقاء أُميّة، تجلس على سرير أسلاكه مفكوكة، فُرِشَت عليه ملاءة مجعّدة منسولة. لكني ارتَعتُ من هشاشة فكرتها.

واصلت المرأة "لم أخبر الفتاة عما دار بخيالي. فقد يؤذي مشاعرها".

"فعلاً؟"

"آه، توصّلتُ لمعرفة الأمر بعد انقضاء سنة. فقد كان زوجي والفتاة على علاقة. كانت ابنة عمّ زوجي البعيدة، بدرجتين أو ثلاثة. وقد انزعج أخوها مما يجري بينهما؛ هدّد أن يقطع رأس أخته! أخبرني أحدهم أن الفتاة، يوم زواجي، وكانت تمسك بعنان الفرس الذي يمتطيه زوجي لأداء الشعائر، قد أُصيبَت بالهستيريا ثم أُغمي عليها".

رأيت دموعاً في عينَي المرأة. وبطيشٍ تلمّسَت يدي فحضنتها في يدها المرتجفة. قالت "أرجوكِ افهميني بوضوح. أكره أن أرتدي ملابس ملبوسة. فكلّ بناطيلي بشرائطها الذهبية، أوشحتي[1] المزيّنة بأزرار نجمية، قميصي المقصّب ـ كانت بشكل ما تلبسها. ومثل الملابس، زوجي أيضاً ـ تعرفين ما أقصد".

---

1 chunries : وشاح للرأس، يُلبس في الأعراس الهندية، مزخرف كلّه ألوان. م

هل لأحد أن يُلبس هذه المشاعر بكلمات؟ أحسستُ أني غير جديرة بالمَهَمّة.

واصلت المرأة "نحّيتُ ملابسي جانباً. وزوجي أيضاً. أعيشُ الآن مع خالي. أكنس الأرض وأمسح الموائد، كما ابتعتُ ماكينة خياطة أتولّى العمل عليها. أرتدي ملابسي من صُنع يدي. وأنا قانعةٌ بها. أُفضّلها على الملابس الملبوسة، حتى لو كانت من أفخم الحرير".

"خالي قلقٌ يريد التوفيق بيننا. لن يفهمني. فأنا سعيدة بما أنا عليه. لا أريد أكثر من هذا. هذه، باختصار، قصة حياتي. اكتبيها، أرجوكِ، لأجل خاطري. أريد من الناس أن يعرفوا مشاعري إزاءها".

المحظوظة! المرأة ذات الجسد العفيّ والقلب شديد المراس- التي تحمّلت الكثير من المعاناة؛ فجذبتها إليّ وحضنتها.

تُسرع العربات في الخارج أمام الفندق الصغير، تلك القادمة من سيملا. قد تقف عربة، بين حين وآخر، أمام الفندق، ويخرج ركابها، في ملابس حريرية، يطلبون كوب شاي، أو يبتاعون سجائر، أو خبز الشاباتي الطالع من الفرن. وتخدمهم المحظوظة، التي نبذت الملابس الحريرية وهي الآن في قميصٍ من صُنع يدها.

قالت "أحتفظ بالورقة النقدية التي منحتِني إياها".

"حقاً! لقد نفحتكِ إياها من زمان".

”نعم، لكني سلّمتها للمرآة المزيّنة لتحفظها في أمان. ثم استرددتُها منها بعد أن رأيتُ صورِك“.

شدّت صندوقَ صفيحٍ من تحت الفِراش وأخرجت ورقة الروبية المطوية من علبة خشبية.

قالت ”أرجوكِ، اكتبي اسمكِ عليها“.

قلتُ ”كارمنوالي، يسعدني أن أخطّ اسمي على الورقة. لكني الآن أُفضّل أن تكتبي أنتِ اسمك على ورقتي. فكاتب الحكايات ليس عظيماً، بل مَن يعيش الحكاية. فمعاناته هي ما تُخلّي الكاتب عظيماً“.

أخرجتُ ورقة روبية والقلم من محفظتي.

قالت خجلة ”لستُ ماهرة بالكتابة. لكن انتظري، سأحاول“.

يا محظوظة، لقد جلستُ اليوم أكتب حكايتكِ. اسمكِ كالعلامة المقدّسة على جبين عابد، هو عنوانه.

أعرف أن الحكاية لن تُجديكِ نفعاً. لكن مَن يريقون دماء الآخرين بما يُشبه لون الزعفران على جبينكِ سيكرمونكِ، أما مَن يلبسون ”ملبوس“ الآخرين فهم يجلّلون رؤوسهم بالعار.

مسألة الحياة

لدى كلّ امرئ مسألة في الحياة عليه حلّها. أنا أيضاً. تتضمن حسابات عديدة. فيها كلّ من الجمع والطرح.

أنهيتُ شايي الصباحي، فردتُ الجريدة. في صفحتها الأولى صورة فينر بروكواي[1]، الذي حرّك قانوناً بمجلس العموم يستحثّ نهاية التمييز العنصريّ[2].

المشكلة غريبة، فعلاً. يكتشف الاقتراب العاطفيّ أنها جوفاء عبثية؛ لكن الإنسان هو في الحقيقة مَن يُعقّدها . بإغماض عينيه عن السبب.

لم تكن عندي مَشغلَة حتى الظهيرة، ففكّرتُ في الذهاب إلى سينما. قلّبتُ في صفحة إعلانات السينما. أمعنتُ في مختلف عناوينها، ثم قرّرتُ دخول فيلم "هِبة الغرام"، المعروض بسينما بلازا.

توقّفت عيناي الجائلتان عند الصفحة المواجهة، يقول عنوان بعمودها الثالث:

1 Fenner Brockway : إنجليزيّ، ابن أحد الإرساليات التبشيرية المسيحية في الهند. م

2 حكيت من قبل عن التمييز الطبقيّ العنصريّ بين طوائف الهندوس، عليا ودنيا. م

وفاة السيدة شيتنا. والقصة كالتالي: "السيدة شيتنا، زوجة سيث ديفي ديت من أحمد آباد، قضت نحبها الليلة الماضية حوالي الثانية صباحاً. كانت مريضة من زمن طويل بضغط الدم العالي، تدهورت حالتها فجأة من يومين. كانت أمنيتها الأخيرة أن تسكن الغرفة رقم 9 من فندق البحر الأخضر، بومباي. وفقَ ذلك، أُخذت هناك صباح أمس. مع أنها كانت تملك شقّة قريبة، إلا أنه، إذعاناً لرغبتها، رُتب الأمر لتقيم بغرفة ذلك الفندق.

هلّت الدموع من عينَيّ، وبعين خيالي كلّمتها: "شيتنا، من يعرف ما قد كسبتِه أو خسرتِه في الحياة؛ ما بقي منكِ معروف لكِ ولكِ وحدكِ".

بُعث إبريلُ الماضي نفسُه أمامي. ذهبتُ إلى بومباي، في عطلة اثني عشر يوماً. استأجرتُ غرفة في فندق البحر الأخضر، حيث ألمح البحر بسهولة.

وما كدتُ أن أستقرّ، حتى أدهشتني امرأة تريد أن تراني. بعد أن استفسرَت عن اسمي، قالت إنها تودّ أن تكلّمني. فقلتُ "لنذهب إلى غرفتي بالطابق الثاني".

تبعتني، بهدوء. قدّمتُ لها كرسياً. قالت: "مع أنه يبدو من جهتي أمراً أنانياً، إلا أني أرجو منكَ خدمة".

سألتُ "ماذا بمقدوري فعله لكِ؟"

لم يأت منها ردّ دقيق. قالت: "بيتي في أحمد آباد، لكن حين تُتعبني رتابة الحياة السخيفة، آتي إلى بومباي يوماً أو يومين. لديّ نُزل هنا، لكني لا أبقى فيه، لأن محيطه لا يقدّم عزاءً لي. أعود إلى هذا الفندق كلّ ثلاثة أو أربعة أشهر، ألبث في هذه الغرفة. بعد يومين أرجع إلى أحمد آباد.

كلّ مرة أنوي المجيء هنا، أحجز لنفسي هذه الغرفة. لكن تلغرافي لم يصل هذه المرة لمدير الفندق. وعند وصولي وجدتها مشغولة فانزعجتُ جداً. فتّشتُ السِجلّ فوجدتُ اسمك شاغلَها. بدا لي مألوفاً إلى حدٍّ ما. حاولتُ التذكّر، فتذكّرتُ أني قرَأتُ آشو، روايتِك. رأيتُ أن القلب الذي فهم لوعة آشو، قد يتعاطف معي" .

قلتُ "لا مشكلة قطّ. ليس عندي اعتراض على تبديل غرفتي، إن كنتِ مصرّة" . ثم اتّصلتُ بالمدير وطلبتُ منه أن يعطيها هذه الغرفة ويرتّب لي أخرى.

قال المدير "هناك غرفة جيدة مثلها بالطابق الخامس، غرفة رقم 25؛ ربما أجمل، وتواجه البحر. سأُبلغ عامل الفندق أن يحوّل متعلّقاتك" .

"آمل أن تتقبلي عفوي عن هذه المضايقات..." ، وصارت المرأة أشدّ عاطفية، مما زاد جمالها.

"آه، لا يهمّ. ففي الطابق الخامس لن أكون فقط قُرب السماء، بل سأتمتّع بالبحر" . ضحكتُ وبدأتُ جمع ملابسي وأشيائي الأخرى.

سألَت "كيف كتبت قصة آشو؟"

"قرأتِها كاملة؟"

"نعم، كما جعلتني أبكي".

"يقال إن أشخاصاً مثل آشو لا توجد في الحياة الواقعية - فلا أحد يُضّحي دائماً".

"خطأ. كيف يتسنّى لأولئك الذين لم يخبُروا الحبّ تصوّر وجود أشخاص كهذه؟ إن قراءة روايتكِ جعلتني أحسّ أن حكاية آشو هي حكايتي".

قلتُ "لديكِ فعلاً ملامح غنية، مفعمة بثراء الحياة".

"آه! ثراء الحياة!"، تغيّر لون وجهها، وسكتت قليلاً، ثم قالت: "لقد كسبتُ الكثير في الحياة، وخسرتُ الكثير أيضاً؛ لكن ما بقي مني؛ لم أُخبر به أحداً. اليوم يبدو أني سأفكّ مغاليق قلبي".

"أولاً، بينما تجهّزين هذه الغرفة، سأقوم بترتيب غرفتي".

"هل ستعودين فور أن يخلو لكِ المجال؟ يمكنني المجيء إليكِ، لكن المشكلة أني لا أستطيع قصّ حكايتي إلا في هذه الغرفة...".

بعد قرابة نصف ساعة، عدتُ. طلبنا قهوة، جلبوها فوراً. جلسنا بالشُرفة المطلّة على البحر. كانت باقة ورد يانع تزيّن المائدة.

"اسمي شيتنا. ولدتُ في كانبور. جنب نُزل أبي الجميل منزل

صغير. دخل والد تلك العائلة السجن في أثناء حركة ساتياجراها[1]، وأكمل الابن تعلميه العاديّ بمشقّة. اسمه يغراج. نال وظيفة ثانوية. كلّ مرة أراه، كان العسل يتقطّر في حلقي. لكن من يجرؤ أن يتكلّم عن أناس بمنزل صاحب طاحونة؟

"بعد زواجي، لم تكن ملاعق الفضّة نادرةً، لكن وعاء حياتي فارغٌ. خسرتُ ذاتي في الكتب والحياة الاجتماعية. ولأنسى حاجتي، طفتُ أنشُد حاجيات الآخرين.

"مرة حضرتُ جلسة للكونجرس، حيث يتلو يغراج مقاطع أُردية[2]؛ لوجوده تأثير غامض عليّ. شذا أنفاسه كالجدول السيّال؛ بأمواهه فقدتُ خطواتي. ثم استجمعتُ عقلي واتّخذتُ طريق عودتي.

"كدتُ في اليوم التالي أطلب رقم مكتب الكونجرس، أكثر من مرة. لكني في النهاية لم أستطع كبح أصابعي؛ فطلبتُ الرقم. استُدعي يغراج للردّ على الهاتف، ولما تكلّم..."، سكتت شيئنا فجأة. مسكتُ يدها في يدي، لكني لم أفعل ما يُنهي حلم يقظتها. كسرت هي نفسها الجليد: "شعرتُ بتنفّسه بشكل غريب حتى وهو يكلّمني في الهاتف.

---

1 Satyagraha : انتفاضة أيام الزعيم الروحيّ غاندي، حدث فيها عصيان مدنيّ سلميّ يتعلّق بالكفّ عن شراء الملح الإنجليزيّ، وكانت لتفعيل الاستقلال 1947. م

2 Urdu: أشهر اللغات المنتشرة في الهند وباكستان، فيها مفردات عربية كثيرة، وإنجليزية أيضاً. م

"أبلغني يغراج أنه يخطّط للعودة إلى دلهي، لكن لديه شبه فكرة في زيارة بومباي أيضاً؛ لديه هناك بضعة أعمال غيرِ منتهية عليه أداؤها. نويتُ أيضاً الذهاب هناك اليوم التالي، لأُشرف على بناء نُزلي. قلتُ، لو استطعتُ أن أساعده بأيّ شكل، لفعلتُ مسرورة".

تلعثمت شيتنا مرة أخرى؛ ثم استجمعت نفسها وقالت: "صحبني في اليوم التالي، إلى بومباي. في كلّ مناسباتنا السابقة، كنتُ أبقى مع صديقة لي، لكني يومها بقيتُ في هذه، هذه الغرفة؛ جنبَ الغرفة المُؤجَرة له...".

أطلقَت شيتنا آهةً طويلة، وقالت: "بعد أن أنهينا عشاءنا، سألته أن يبقى بغرفتي وقتاً، ويتلو عليّ بعض المقاطع. كان الورد لا يزال على المائدة. وهو يتلو بعض المقاطع، ظلّ يدخّن بلا انقطاع. أمريتا، إن لم تمانعي...".

"فيمَ؟"

"أشعل سيجارة. وأنا بهذه الغرفة، أحسّ دائماً بوجوده هنا. أرتّب باقة ورد على المائدة وأمسك سيجارة مشتعلة بين أصابعي. كما كان يفعل. لا أدخّن قطّ".

"طيب، لا اعتراض لديّ".

أشعلت شيتنا سيجارة، مسكتها بين أصابعها، قالت: "ورد شذيٌّ قد تخلّل نفسي. أحسستُ بأن الفراغ في داخلي امتلأ أخيراً. عندي ما أحتاجه. حدث هذا منذ 20 سنة.

"كلٌ لديه مسألة عليه أن يحلّها في الحياة؛ كذلك أنا. تتضمن حسابات عديدة - كلاً من الجمع والطرح - لكن تبقى له روحه!"

لم تعد شيتنا تبالي بوجودي، انغمرت في ذكراها. ففتحتُ الباب وخرجتُ مسرعة.

حدث هذا في إبريل، واليوم، 22 مايو، أفتح الجريدة، فأجد:
"شريماتي شيتنا... أمنيتها الأخيرة... البحر الأخضر... غرفة رقم 9... الثانية فجراً...".

خمس أخوات

هذه حكاية بلد شاسع. البرد يبلور الماء في حميّةٍ فيغسل أوصال الحياة الجميلة. نشرت الأزهار شذاها عبر المكان فجلبت ألوانها السبعة ثياباً لها جميلة. أشعة الشمس ملأت الفاكهة بالعصير، ثم قالت الحياة للريح، بعينَين مفعمتَين حماسة: "سمعتُ أن لهذا القرن خمس أخوات. كلهنّ شابات جميلات".

"نعم".

"سأزورهن اليوم جميعاً".

فضحكت الريح.

"جلبتُ خمس هدايا، ثمينة بالتساوي. سأُعطي كلاً هدية. فهلاّ تصطحبينني؟"

"إن أحببتِ".

"بداية كلّ شيء، أحبّ أن أزور الأخت الكبرى".

"طيب، لكن تذكّري أن منزلها دون نوافذ. هناك باب واحد فقط، يغلقه زوجها من الخارج بخروجه، ومن الداخل بدخوله".

"أفضّل أن تغمريني فيكِ كالعطر، وهكذا أدخل منزلها معكِ".

"لا، على الإطلاق. فالعطر يزيد الوزن فوقي مما يجعلني عاجزة عن الدخول من الشقوق. وقت أن أعبر جدران منزلها، قد تتحطّم أضلعي".

ثم أخذت الريح الحياة إلى منزل كبرى الأخوات الخمس.

على جدار كبير رأت الحياة صوراً لا تُعدّ محفورةً... مئات منها... آلافاً منها.

هذا الجدار هنا منذ قرون. حين تموت امرأة داخل هذا المنزل دون أن تعبر عتبة بابه، يحفر أهل هذه البلاد صورتها عليه.

"ألم تعبر أيّ من ساكنيه العتبة؟"

"لا، يا حياة، لا"

"بأيّ اسم تمتدّ هذه الجدران؟"

"التقاليد - بعضها تفرضه الوراثة، الأخرى من الدين، ولا تزال أخرى من المجتمع".

"لكني أريد مرةً على الأقلّ أن أرى امرأة هذا المنزل".

"حتى أشعّة الشمس لم ترها، فأنّى لكِ أن تريها؟"

"لكننا، أيتها الريح، نعيش في القرن العشرين. فعن أيّ أزمنة

تتحدثين؟"

"هنا تتسارع القرون فقط خارج ضواحي المنزل. قد تمرّ عشرة قرون، ولا تُحدث إلا قليلاً أو لا فرقَ لنزلائه".

"جلبتُ لها هدية".

"وإن وصلتها هديتكِ بدرجةٍ ما، فلن تقدر أن تُعيرها لمسة يديها".

"ولمَ لا؟"

"لأن كلّ ما في هذا العالم يُنكرها".

"ألن تنصت لكلماتي؟"

"لا، فكلّ الأصوات القادمة من وراء هذا الجدار تُحتَجز عند أُذنيها".

"ما قصدكِ، يا ريح؟ عموماً، هي سيدة شابة".

"تتكلّمين بمنطق السنين، يا حياة. لكن المرأة في هذا المنزل لا تبلغ الشباب قطّ. يغلبها العمر الطاعن حتى وهي تُعشّش في صدر الطفولة".

ارتجفت ساقا الحياة وراحت في رعب، كروح منهزمة.

قالت الريح "هناك ابنة القرن الثانية".

"أين؟"

"هناك، تجمع الفحم من خطّ السكّة الحديد".

امرأة، قُرب الثلاثين أو نحوها، تغطّي بشالها القسم المكشوف من جنبها، وتضع حفنة فحم في السلّة بيدها اليمنى، تتطلّع في ابنتها، راقدة على مبعدة قرابة عشر ياردات. تزداد صيحات البنت تدريجاً حادّة ثاقبة. فتُنحّي المرأة سلّتها، وتحضن البنت إلى صدرها. تلتصق الطفلة بحلمتَيها مراراً، لكن لا ينزّ حليب منهما، ومن جديد تبدأ الصراخ.

اقتربت الحياة ونادت: "يا أختا"، وربما لم تسمع المرأة.

اقتربت الحياة أكثر، قالت من جديد: "يا أختا"

نظرت المرأة إلى الحياة غير مبالية، وأدارت عينيها بعيداً كأن شخصاً آخر، وليس هي، من خوطِبَ.

رفّت شفتا الحياة الآن: "يا أختا"

فسدّدت إليها المرأة نظرة خاطفة وسألت، لا تزال غير مبالية: "من أنتِ؟"

"أنا الحياة".

صرفت المرأة أفكارها من جديد إلى ابنتها الباكية، كأنها لا تُبالي أياً كان بما قد تقوله العابرة.

"لقد جئتُ إلى بلادكم، بلدتكم، منزلكم...".

لم تتفهّم المرأة هذا الكلام عن البلاد، البلدة، والمنزل.

"سألبث معكِ اليوم".

تطلّعت المرأة حانقة في وجه الحياة، كأنها تقول إنه لا ينبغي للأخيرة أن تجرحها بمثل هذه النكات.

"لمَ لا تُرضعين ابنتكِ؟ فالمسكينة تبكي".

في البداية عاينت المرأة قوامها البائس، ثم ملامح ابنتها الذاوية. لم تفهم مغزى السؤال. إن كان لديها الحليب، فلماذا لا ترضع الطفلة؟"

"كم يبعد بيتكم من هنا؟"

"بعد ذلك المصرف الوسخ".

"سأمضي معكِ".

"لكني لا أملك منزلاً يستحقّ اسمه. فهو مجرد كوخ من القصب".

"أهذا أمر مهمّ؟"

"ليس فيه أيضاً هيكل فِراش. بل كيسان من الخيش".

"وزوجكِ؟"

"مريض".

"يعمل؟"

"كان عاملاً بمصنع، لكنه صُرف من الخدمة إثر تخفيض النفقات الذي حدث العام الفائت".

"وبعد؟"

"فهو مريض من سنة".

"هذه طفلتكِ الوحيدة؟"

"لي ولد أيضاً، لكن...".

"أين هو؟"

"ذات يوم، وقد بلغ به الجوع مبلغه، سرق تفّاحة من سيارة رجل ثريّ، فحبسته الشرطة وراء القضبان".

"هل لي أن أصحبكِ لمنزلكم؟"

"لكن من أنتِ؟"

"أنا الحياة".

"لم أسمع باسمكِ".

"لا بدّ سمعتهِ من زمان في سِنيكِ الأولى وأنتِ تعتادين سماع الحكايات".

"كانت أمي تعرف حكايات كثيرة. يعمل أبي مزارعاً، دون أن يملك أرضاً تخصه. ولم نتمكّن من ردّ المال الذي اقترضناه لزواج

أختي الكبرى. فأخذ صاحب الدَين ماشيتنا، ورحل أبي إلى بلاد بعيدة طلباً للتوظيف. لم تستطع أمي النوم ليلاً وكانت تحكي لي قصصاً عن المَرَدَة والأشباح والشياطين. لكني لم أسمع باسمكِ".

"ماذا جلب أبوكِ من تلك البلاد البعيدة؟"

"تعوَّدت أمي قول إنه جلب ذهباً كثيراً، لكنه لم يعد".

وتلعثمت المرأة. سألت "ولماذا تهتمين بزيارة منزلي؟"

"أنا..."، ولم تستطع الحياة أن تنبس بالمزيد.

وقفت المرأة مع سلّة فحمها.

قالت الحياة "جلبتُ لكِ هدية"، وهي تقدّم لها سلّةً مليئة بالشذا والألوان.

"لا يا أختي، احتفظي بها لنفسكِ". وصرفت المرأة عينيها منزعجة.

"جلبتها لكِ".

"لا يا أخت، ستقول الشرطة إني سرقتها من مكان ما".

واستدارت المرأة لتشقّ طريقها عائدة إلى البيت، تعجّل خطواتها. لكن، حين وجدت أن الحياة لا تزال قادمة خلفها توقّفت في رعب تقول "عودي يا أخت. لا تتبعيني. أخاف كثيراً ممّن لا أعرفهم. جاء مرة شابّ ربيب المدينة وعد زوجي بوظيفة، وأن يُطلق سراح

ابني السجين. فاستلفتُ آتا[1] من جيراني وخبزتُ له خبزاً. لكن حين صحبته إلى المدينة لأرى ابني، في الطريق... في الطريق... هو...".

اهتزّ كلّ ضلع من المرأة وهي تقول هذا، وأسرعت مبتعدة.

قالت الريح، وهي تمسح من عينَي الحياة دموعها المنسابة: "الآن، دعيني آخذكِ لمسكن الأخت الثالثة".

همست الريح في أُذنَي الحياة، وهما تمرّان ببيت صغير فخم: "هذا منزلها".

أوقفها حارس البوابة، ثم بعث رسالة مع خادمة. ظلّت الحياة تنتظر زماناً طويلاً. حينما مُنحت في النهاية الإذن بالدخول، عبرت باباً زجاجياً وراء الآخر، ومرت بستارة حريرية بعد أخرى، حتى وصلت غرفة خاصة.

كان تمثال امرأة من المرمر الأبيض قائماً في ركن بالغرفة، يُرشَّش بماء. هناك امرأة أيضاً بشرتها من المرمر الأبيض، تقعد في كرسيّ قريب. وتغطّي جسمها خيوط حريرية مشغولة بجهد كبير.

لم يأت صوت من تمثال المرأة القائم، لكن التمثال الجالس قال: "من أنتِ؟ فإني لا أعرفكِ".

---

1 atta : دقيق أبيض، لصنع الخبز. م

نظرت الحياة حولها، لكنها لم تر كائناً حياً هناك. لمست الحياة التمثالَ القائم؛ كان صلباً كالحجر. ثم لمست التمثال الجالس؛ كان ليناً كالمطّاط.

قالت أخيراً، بنبرة مقموعة "أنا الحياة".

"لا أذكُر بالضبط، لكن يبدو أني سمعتُ باسمكِ في مكان ما. ربما قرأته بكتاب ما في أثناء طفولتي".

"في كتاب ما؟"

"آه، تذكّرتُ. تعوَّد ولد من أترابي تأليف الأغاني. ومرة قدّم لي مجموعة أغانيه، وقتها خطر لي اسمكِ".

"وأين هو الآن؟"

"كان ولداً مدقعاً. لا أدري أين ذهب".

"وأغانيه؟"

"وقتها جئتُ لأشغل هذا النُزل الجديد، فتركتُ خلفي كلّ شيء قديم. واشترينا هذه الأشياء، كلّها جديدة".

"يبدو أنها غالية الثمن".

"زوجي رجل لُقطة. آمل أن يُعاد انتخاب "الكبير" في الانتخابات القادمة. ساعتها، نحسّ بمقدرتنا على شراء أيّ شيء دون أدنى صعوبة".

تقدّمت المرأة التي تشبه المطّاط لتُهدي الحياة بضع أزهار كانت على طاولة.

حين لمستها الحياة، أحسّت بفَوح رائحة كريهة.

"قطفَ خدمي هذه الأزهار تواً. وربما لم تغسلها خادمتي. لهذا السبب فهي تُصدر رائحة كريهة. من أيدي الخدم. أليس الجوّ حاراً اليوم؟ أحسّه أفضل في الخارج نوعاً".

تطوّعت الحياة وهي تتنهّد "على راحتكِ، لو أردتِ نطلع في الهواء الطلق".

"لا، لا أستطيع الخروج على هذه الشاكلة. كما أن مخالطة ناس من طبقة غير طبقتنا يحطّ من كرامتنا. في الحقيقة، حين أجريتُ جراحة، بقيت لي علّة لم تُشْفَ. هكذا، أعاني أحياناً من ألم فظيع".

وقفت الحياة، جسّت نبض المرأة التي تشبه المطّاط، لمست جسمها، وقالت: "لماذا لا يدقّ قلبكِ؟ فهو صامت بارد كالحجر".

"إنه هكذا، لأن المشكلة تلحّ. يقول زوجي إنه علينا أن نذهب إلى بلد أجنبيّ، قد يكون الولايات المتحدة الأمريكية، فلدى الأطباء هناك خبرة كبيرة. وقد أُجري جراحة من جديد".

"لأجل ماذا؟"

"حين تنضمّ فتاة تزوّجت حديثاً إلى مستويات "عائلة كبيرة"، تُجرى لها جراحة في الليلة الأولى بواسطة أطباء مشهورين في البلاد. وهذه عادة سائدة حصرياً بين الطبقات العليا".

"عملية في ليلة العُرس؟"

"نعم، بعد تشريح جسمها وهي حية، يُستخرج قلبها، ويضعون محله شريحة من الذهب. حدث خطأ نوعيّ بعمليتي. هو سبب معاناتي، ألماً حادّاً في أغلب الأوقات. إن خرج زوجي ظافراً في الانتخابات القادمة، فسنسافر إلى الخارج في يوم من أيام الشهر القادم. سيُجرون لي جراحة ثانية وأكون على أكمل وجه".

"جلبتُ لك هدية".

"آسفة، أبلغني زوجي ألاّ أتقبّل شيئاً من أحد هذه الأيام مع دنو الانتخابات. علاوة على أن لنا أنصبة في كلّ الطواحين المنشأة عبر البلاد. لذلك، لا يتعين علينا قبول مثل هذه الهدايا التافهة".

رنّ الهاتف، وبعد الحديث عدة كلمات في سمّاعة الهاتف، قالت لي: "يا أخت، لو عندكِ أيّ شيء تودّين قوله لي، فالأفضل أن تتّصلي في وقت لاحق. فزوجي قادم الآن إلى البيت مع بضعة أعضاء من مؤسسته".

أمسكت الريح الحياةَ من يدها، تسندها، وأخذتها إلى منزل الأخت الرابعة.

كان منزلاً في غاية البساطة، لكن للضوء المنعكس من السيارة المركونة أمامه تأثير مبهر على العينين. اختلست الحياة النظر إلى الداخل، وهي واقفة على العتبة. امرأة شابة في سنّها الـ 22 أو 23 تحاول هزهزة وليد لينام. كلّ ما في الغرفة من اللوازم الضرورية، لكن ملابس المرأة كانت مبهرجة إلى حدّ غريب.

دقّت الحياة على الباب، بنعومة.

"مَن هناك؟ أرجوكَ، دقّ بهدوء". وظهرت المرأة الشابة عند الباب، ثم أردفت: "ستزعجون نومة طفلي". علا صوتها مرتاعاً "سـ... سـ..."، وبدأت تتمتم.

"أنا الحياة".

"أعرف".

"تعرفين؟"

"أجري وراء ظلّكِ طيلة حياتي. والآن استنفدتُ جهدي كلياً فتخليتُ عن مسعاي. أفضل لكِ أن تذهبي. وعودي من حيث أتيتِ. ألا ترين خطّ اللعنة أمام باب بيتي؟ ليس لكِ أن تعبريه. كما لا يمكن محوه. اذهبي من هنا... اذهبي". ولهثت المرأة الشابة.

"أختي الطيبة...".

"أخت؟ لستُ أختَ أحد، ولا بنتَ أحد، ولستُ شيئاً يخصّ أحداً قطّ".

قالت الحياة "طفلكِ..."، وهي تثبّت عينيها في الوليد النائم.

"طفلي... طفلي... ليس لأحد أن يدّعي أنه أبوه".

"لا أفهم".

"حينما وضِعَ أساسُ استقلال بلادنا، دعمت عظامي بناءه. حينما زُرعت شجرة الحرية في أرضنا، روّيتها بدمائي. أما حينما أُنيرت مصابيح الفرحة عبر المكان، فقد ولغ في النار شرفي وكبريائي. هذا الطفل من صنيع تلك الليلة، من رماد تلك النار، من ندبة ذلك الجرح...".

"أختي المكروبة...".

"منذ ذلك الحين، تتكرّر الحكاية نفسها كلّ ليلة. واعتدتُ غالباً أن أحلم بكِ. ظننتُ أنكِ قد تضعين الآس في يديّ العفيفتَين، أن يردّد فناء منزل أمي أغاني الريف، أني قد أسمع بأُذنَيّ نغمات أعراس شيهناي. كان رجل شابّ قويّ ثابت من قريتنا بطل أحلامي. كنتُ لا أزال ألعب الاستغماء مع ظلّكِ حينما نُهبت قريتي، فجُزر أبي، وقُتل أخوتي، لدغتني أفعى. وأفعى أخرى... ثم أخرى... عندما تعضّ هذه الثعابين برؤوسها البشرية امرأة، لا تُشفَى أبداً، بل تُجرّ ببساطة وهي حيّة، لتلدغها في انتظام بسُمّها.

"ثم رأيتُ لك ظلاً آخر. قال أهل قريتي إنني قد أُستنقَذ من قبضة هذه الأفاعي، أن قد يُستخرَج سُمّها من جسمي وتُردّ لي ثانيةً

عفّتي وبراءتي. فجريتُ وراء ظلّكِ، لكن ثبت أنه شبح، شبح كامل. فلن يتقبّلني بطل أحلامي. فقد طردني ببساطة من بابه ـ وكان عليّ أن أتجرَّع ذلك السمّ من جديد. والتفّ عليّ المزيد من مختلف الثعابين المذكورة. ألم تري تلك السيارة المركونة أمام منزلي؟ كم ترينها مشعّة! فهي ملك ثعبان كبير جداً. سيلدغني الليلة".

رُبط لسان الحياة. أما الهدية التي تمسكها في يدها فقد رطّبتها الدموع.

"ماذا جلبتِ لي ـ هدية؟ ألا ترين أن جسمي كلّه قد صار مسموماً؟ حينما أمَسُّها، ستُمسي هديتكِ وألوانكِ وعطوركِ أيضاً مسمومة. كلّ ضلع مني مليء بالسمّ... السمّ... ولا شيء غيره".

حركت الريح هواءً على وجه الحياة، وقد فقدت وعيها الآن. مجرّد أن عادت "الحياة" إلى وعيها من جديد، أخذتها الريح إلى منزل الأخت الخامسة.

عدد ضخم من الكتب، آلات موسيقية، وألوان مبعثرة، حول فتاة بهيّة المُحيّا، في 20. شعرت الحياة بالراحة نوعاً ما. فقد لمست الفتاة الجميلة أوتار الآلة الموسيقية بأصابعها، وشقّت الهواءَ أغنية عذبة. واصلت الغناء، بدمع وامضٍ كالنجوم في عينيها، ثم راحت ترسم، بعون من خطّ لونيّ رفيعٍ، صورة جميلة بفرْخ ورق.

أحسّت الحياة كأنها تودّ تقبيل يديها المفعمتَين بالفنّ. سحر أنغام عذبة، كلمات رائعة، وأسارير منفرجة تسري في الجوّ كلّه.

سحبت الحياة نفَساً عميقاً، وسارت قُدُماً، تمسك في يديها السلّة مليئة بالعطور والألوان.

دُهشَت الفتاة.

"أنا الحياة".

"أعرف..." نطقت الفتاة، لكن لم تُبن عن مزيد.

فجأة، توقفت الحياة. فقد اعترضت حركتها أسلاك حديدية رفيعة مقامة أمام المنزل.

قالت الفتاة، تدلّي رأسها "لن أقوى على الترحيب بكِ في هذه اللحظة".

استفسرت الحياة، ذاهلة "لمَ لا؟"

"إن زرتِني في أحلامي حين أنام، أو في خيالي وأنا صاحية، فسأكلّمكِ إلى ما لا نهاية، أحكي لكِ حكايات كثيرة، أسمع كلّ ما تريدين قوله. أو بطريقةٍ أخرى، أسعى دائماً للّحاق بظلّكِ. فانظري كيف رسمتُ وجهكِ الجانبيّ بهذه الألوان... غنّيتُ أغانيكِ بمصاحبة ألحان صادرة عن هذه الأوتار... دوّنتُ حكاياتكِ عن الحبّ بهذا القلم...".

"لكني اليوم، بنفسي، وصلتُ إليكِ... إليكِ...".

"تحدّثي بنعومة... بنعومة أكثر... فلجدران منزلي كلّها

ثقوب... آلاف العيون تراقب دائماً أنشطتي. تتلصّص من هذه الثقوب... كلّ ثَقب خلفه عينان مخيفتان. عيون مفعمة بالكُره. وتنطلق آلاف الأسهم من كلّ لسان. لو جلستُ إلى جوارِك لحظة، فستقلب سهامهم فناجين ألواني بغمضة عين، تنزع أوتار آلاتي، وتثقُب كلّ كلمة من أغانيّ. وهذا الكره من هذه العيون..." .

"لكن هؤلاء القريبين يسمعون أغانيكِ، يقرؤون حكاياتكِ، يرون لوحاتكِ..." .

"يستطيع فنانو هذه البلاد فحسب الكلام عنكِ، مع أنهم لا يرون لكِ وجهاً. فمن يرَ وجهكِ يُعاقَب بالقصاص حدّ الموت... يُستحسن الآن، يا حياة، أن تمضي. فقد يراكِ هنا أحد... وليس عندي محلّ أستضيفكِ فيه غير أحلامي..." .

"جلبتُ لكِ هدية" .

"سأقبلها، حينئذٍ، فقط... لكن تعالي، طبعاً. سأبتدع السماوات السبع جميعاً لكِ. أرجوكِ يا حياة، تعالي، سأُزيّن سماواتي بهداياكِ. تعالي في الساعات المبكّرة من الصباح، سأكتب أغنيةً في حبكِ، أرسم صورة عن أناقتكِ، وأُنشد غنائية عن جمالكِ. لكن عليكِ الرحيل الآن وإلا فسيُكتَشف وجودكِ أيضاً..." .

وأدارت الفتاة ظهرها للحياة.

نبذة عن المؤلفة:

تُعد أمريتا بريتام من أبرز الكاتبات الهنديات المعاصرات، نشرت ما يربو عن 30 كتاباً منها مجموعات شعرية وأغانٍ شعبية، وقصص قصيرة، وسِير وروايات. تسلّمت عام 1953 جائزة الرئيس عن مختاراتها «رسائل». وتُعتبر الكاتبة الوحيدة التي حازت هذا الشرف حتى الآن.

بدأت أمريتا بريتام الكتابة في الخامسة عشرة، وكانت أعمالها الأولى تعبيراً عن شكل من الاحتجاج المباشر، ثمّ أصبحت ذات طابع ماركسي شرس؛ لكن غلبتها في النهاية مَلَكَتُها العاطفية الغنائية. كانت السمة الغالبة على كتاباتها تصوير معاناة المرأة والكيفية التي يقهر بها العالم نساءه.

ولدت أمريتا في 31 أغسطس 1919، في غوجرانوالا - غرب باكستان. فقدت أمها وهي طفلة. جاء اهتمامها بالأدب من والدها الأديب كارتر سنج هتكاري. زُوِّجت أمريتا في الخامسة عشرة إلى سليل عائلة تجارية معروفة من لاهور، فأضافت لقب زوجها، بريتام، لاسمها، وأنجبت ابناً وابنة. كانت تعيش في حيّ سكنيّ هادئ في نيودلهي، لا يعنيها غير أسرتها وما تكتب. توفيت عام 2005.

نبذة عن المترجم:

شاعر ومترجم مصري، مواليد القاهرة عام 1955، خريج جامعة القاهرة، كلية الإعلام - قسم الصحافة 1978. ترجمت أشعاره إلى أكثر من لغة عالمية. أنشأ سلسلة «آفاق الترجمة» في هيئة قصور الثقافة بمصر وعمل مديراً لتحريرها ما يزيد عن عامين أصدر فيهما أربعة وخمسين عملاً فكرياً وإبداعياً ترجمها نخبة من المترجمين المصريين والعرب، كما عمل مديراً تنفيذياً لـ «المشروع القومي للترجمة» في المجلس الأعلى للثقافة. وقد أنشأ سلسلة «نقوش» للفن التشكيلي، من إصدار هيئة قصور الثقافة بالقاهرة، وعمل مديراً لها قرابة عامين، وقد أصدر فيها ما يزيد عن 15 عدداً. دُعي إلى عديد من مهرجانات الشعر في الدول العربية: جرش في الأردن، عتبات في المغرب، مهرجان الشعر العالميّ في دبي... ويعمل حالياً مترجماً بوزارة الثقافة في الإمارات.

هيكل من عظم

إني أنا أيضاً من فصيل البشر...
أنا أثر الجرح،
رمز الحادثة،
التي ضربَت كالقدَر، في صدام
أزمنة متغيرة، جبينَ أمي.
إني أنا اللعنة
التي تُحدقُ في إنسان اليوم.
جئتُ إلى الوجود
حين كانت تتساقط النجوم
وقد أطفئت الشمس
وأعتم القمر.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة







cover by phxcom.com